الأحوال الاجتماعية في تونس في القرن السادس عشر من خلال رؤية الرحالة الإسباني مارمول كَرْبَخَال

د. محمد رجب ذكي تمام(*)

- **مُلخص:**

يعد كتاب "أفريقيا" لكربخال من المؤلفات الأوروبية المهمة التي كتبت في القرن السادس عشر عن القارة الأفريقية عامة، وشمالها خاصة. وقد طُبع هذا الكتاب بطابع الرحلة والجاسوسية في الوقت نفسه، فكان مُؤلفهُ جنديًا إسبانيًا خدم في جيش الإمبراطور شارل الخامس أو شارلكانت، وتطور عمله إلى العمل المخابراتي الجاسوسي. ويأتي هذا المصدر من حيث الأهمية في الدرجة الثانية بعد كتاب "وصف أفريقيا" للحسن الوزان، فقد تعاصر هذان المؤلفان. ورغم أن كتاب الوزان لا يثير كثيرًا من الإشكالات من حيث محتواه، باستثناء بعض الأخبار البعيدة عن الواقع نتيجة ظروف الأسر التي عاشها الوزان؛ فإن كربخال على العكس من ذلك يطرح إشكالية التعصب الشديد للمسيحية ضد الإسلام. ورغم ذلك التحامل وتلك المغالطات إلا أنه من الأهمية دراسة رؤية كربخال للمجتمع الإسلامي ببلدان شمال أفريقيا، فهو أحد المصادر الأوروبية القلائل التي تناولت تاريخ ذلك المجتمع خلال القرن السادس عشر الميلادي. وقد وقع اختيارنا على المجتمع التونسي، والذي يشمل ما أطلق عليه كربخال "مملكة تونس"، والتي تضم أربعة أقاليم، هي: تونس، وقسنطينة، وطرابلس، والزاب. وحتى نستطيع تكوين صورة شاملة عن أوضاع المجتمع التونسي خلال القرن السادس عشر، فسوف يتم رصد الأحوال الاجتماعية في مملكة تونس بأقاليمها الأربعة.

الكلمات المفتاحية: مارمول كَرْبَخَال، مملكة تونس، الأحوال الاجتماعية

(*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر – كلية الآداب– جامعة الإسكندرية

Social Conditions in Tunisia in the Sixteenth Century
Through the Vision of the Spanish Traveler Marmol Carvajal

Dr. Mohammed Ragab Zaki Tammam

- **Abstract**

Carvajal's book "Africa" is one of the important European works written in the sixteenth century about the African continent in general, and its north in particular. This book was printed in the nature of travel and captivity at the same time, as its author was a Spanish soldier who served in the army of Emperor Charles V, or Charlecant, and his work developed into spy intelligence work. This source comes in second place in importance after the book “Description of Africa” by Al-Hasan Al-Wazzan, as these two authors were contemporary. Although Al-Wazzan’s book does not raise many problems in terms of its content, with the exception of some news that is far from reality as a result of the conditions of captivity that Al-Wazzan experienced; Carvajal, on the contrary, raises the problem of the extreme intolerance of Christianity against Islam. Despite this prejudice and these fallacies, it is important to study Carvajal’s vision of the Islamic society in North African countries, as he is one of the few European sources that dealt with the history of that society during the sixteenth century AD. We chose Tunisian society, which includes what Karbakhal called the “Kingdom of Tunisia,” which includes four regions: Tunis, Constantine, Tripoli, and the Zab. In order for us to form a comprehensive picture of the conditions of Tunisian society during the sixteenth century, social conditions in the Kingdom of Tunisia and its four regions will be monitored.

Keywords: Marmol Carvajal, Kingdom of Tunisia, social conditions

- **مقدمة:**

مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي بدأت موازين القوى تختل في الحوض الغربي للبحر المتوسط، إذ دب الضعف والانحطاط في الكيانات السياسية في الشمال الأفريقي؛ فاتسمت منظومة الحكم الزياني بالجزائر بالضعف، وكذا منظومة الحكم الحفصي في تونس، ولم يعد بإمكان هاتين القوتين دفع الأخطار الخارجية عن حدودهما؛ من ثم قررا اللجوء للدولة العثمانية؛ فأصبحت منطقة شمال أفريقيا مسرحًا للصراعات بين الدولة العثمانية وإسبانيا إلى أن حُسم الأمر لصالح العثمانيين في عام 1574 فأصبحت تونس إيالة عثمانية على ضوء حملة سنان باشا.

ويعد كتاب "أفريقيا" لمارمول كربخال من المؤلفات الأوروبية المهمة التي كتبت في القرن السادس عشر عن القارة الأفريقية عامة، وعن شمالها على وجه الخصوص. وقد طُبع هذا الكتاب بطابع الرحلة والجاسوسية في الوقت نفسه، فكان جنديًا إسبانيًا خدم في جيش الإمبراطور شارل الخامس أو شارلكانت[1]، وتطور عمله إلى العمل المخابراتي الجاسوسي[2].

ويأتي هذا المصدر من حيث الأهمية في الدرجة الثانية بعد كتاب "وصف أفريقيا" للحسن الوزان، فقد تعاصر هذان المؤلفان ولم يفصل بين كتابيهما سوى أربعين سنة

---

[1] شارلكان (1516– 1556م) تولى الحكم في إسبانيا عام 1516م باسم شارل الأول، لكنه في سنة 1519م أصبح ملكًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة، فبالإضافة لحكم إسبانيا، انتخب أميرًا لألمانيا بعد موت جده لأبيه الإمبراطور مكسميليان، وتلقب حينئذ بالإمبراطور شارل الخامس. وفي سنة 1556م سئم المُلك؛ فتنازل عن إسبانيا لابنه فيليب الثاني، وعن ألمانيا وما بها لأخيه فرديناند، واعتزل في أحد الأديرة حتى توفي سنة 1558م. محمد فريد بك: **تاريخ الدولة العلية العثمانية** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2018) ص170؛ شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق: **تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر** (القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 2000) ص55.

[2] محمد بومدين "**دور رحلة الأسر في تأصيل مقاربات الفكر التاريخي وآلياتيهما الفلسفية عند مارمول كاربخال والحسن الوزان نموذجًا، دورية كان التاريخية**"، يونيو 2022، ص 196، 197.

تقريبًا. ورغم أن كتاب الوزان لا يثير كثيرًا من الإشكالات من حيث محتواه، باستثناء بعض الأخبار البعيدة عن الواقع نتيجة ظروف الأسر التي عاشها الوزان وألف فيها كتابه[3]؛ فإن كربخال على العكس من ذلك يطرح إشكالية التعصب الشديد للمسيحية ضد الإسلام، رغم جهل المؤلف بتاريخ الإسلام الذي كتب عنه من خلال ما استقاه من مكتبات الأديرة وحوليات القساوسة المليئة بالروايات الأسطورية الحاملة للكراهية والحقد. ودليل تعصبه هذا ما قاله عند تحديد هدف تأليفه لكتاب أفريقيا: "لم يكن لي قصد في تأليف هذا التاريخ كله إطلاقًا إلا تشجيع الدول الكاثوليكية على حمل السلاح ضد هؤلاء المسلمين الذين يكتسحون "بوقاحة" مجد المسيحية، ولا يفتأون يحاربوننا ويتحينون الفرص لتحطيمنا، لكن سيسهل علينا إهلاكهم أكثر من أن نسترجع منهم أرض المقدس لأننا نعرف الآن قواتهم"[4].

ورغم ذلك التحامل وتلك المغالطات إلا أنه من الأهمية دراسة رؤية كربخال للمجتمع الإسلامي ببلدان شمال أفريقيا، فهو أحد المصادر الأوروبية القلائل التي تناولت تاريخ ذلك المجتمع خلال القرن السادس عشر الميلادي.

وبهذا يبقى كتاب إفريقيا لكربخال مفيدًا للباحثين في تاريخ أفريقيا في القرن السادس عشر، كملحق مكمل لكتاب الحسن الوزان، متفردًا بما سجله من مشاهدات وما شارك فيه من أحداث ووصف لمواقع لم يقف عليها غيره[5].

وقد وقع اختيارنا على المجتمع التونسي، والذي شمل ما أطلق عليه كربخال "مملكة تونس"، والتي ضمت أربعة أقاليم، هي: تونس، وقسنطينة، وطرابلس، والزاب. وحتى

---

[3] كتب الحسن الوزان أو ليو الأفريقي كتابه "وصف أفريقيا"، وهو أسير في البندقية؛ بناء على طلب من البابا ليون العاشر. انظر **المرجع السابق**، ص189.

[4] انظر تقديم المترجمين لكتاب **أفريقيا** لمارمول كربخال، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، (الرباط: مطابع المعارف الجديدة، 1984) ج1، ص7؛ سالم بوتدارة "الصحراء الجزائرية في كتابات مارمول كاربخال"، **مجلة الحوار المتوسطي**، العدد7، 2014، ص299.

[5] كربخال: **مصدر سابق**، ج1، ص12؛ سالم بوتدارة: **مرجع سابق**، ص301.

نستطيع تكوين صورة شاملة عن أوضاع المجتمع التونسي خلال القرن السادس عشر، فسوف يتم رصد الأحوال الاجتماعية في مملكة تونس بأقاليمها الأربعة.

كانت تونس لا تزال خاضعةً لحكم الدولة الحفصية (1229– 1574م) حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر؛ وقد تم اختيارها كنموذجًا للبحث لعدة اعتبارات منها الأهمية الاستراتيجية الكُبرى لتونس؛ لموقعها في المنتصف من حوض البحر المتوسط، ومن ثم سيطرتها على الملاحة في هذا البحر، فضلًا عن قربها من الشواطىء الإسبانية والفرنسية والإيطالية، من ثم كانت محط أطماع الأوروبيين على الدوام. من ثم يأتي اختيار إقليم تونس من واقع أنها تتوسط المدن الساحلية لبلاد إفريقية وتقابل السواحل الأوروبية ولا سيما إسبانيا، وكانت عاصمة لهذه البلاد في كثير من الفترات، حيث تبادلت الأهمية كعاصمة مع مدينة بجاية، واستفادت كثيرًا من موقعها هذا ومن كونها عاصمة للدولة الحفصية فاجتذبت اهتمام الأوروبيين وجرت مطامعهم، كما إنها استقطبت الكثير من النازحين سواء من دواخل إقليم إفريقية أم أولئك القادمين من الأندلس وأوروبا عمومًا. ومن ثم كانت تونس وبجاية مرتبطتان بالبحر المتوسط، وكانتا أكثر من غيرهما من المدن الأخرى أقرب إلى نوعية المدن المتعددة الجنسيات، فضمت بين جنباتها عددًا من العناصر السكانية القادمة من مناطق متفرقة، وفي تونس نجد عددًا من الفنادق والكنائس والأحياء الخاصة بالأوروبيين من مختلف الجنسيات بالإضافة إلى الأحياء الخاصة باليهود والأندلسيين[6].

والاعتبار الثاني يتعلق بمؤلف الكتاب؛ فكربخال كان أحد الجنود الذين شاركوا في حملة الإمبراطور الإسباني شارلكان؛ لغزو البلاد التونسية عام 1535م رغم حداثة

---

[6] إبراهيم جدلة، **مجتمع المدينة ودولة السلطان بإفريقية في العهد الحفصي (1227– 1574)**، (تونس: الدار المتوسطية للنشر، 2020) ص34؛ ناصر الدين سعيدوني: "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية الجزائر، تونس، طرابلس الغرب: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري، من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي"، **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية**، الكويت، 2010، ص55.

سنه[7]، وحضر احتلال هذه البلاد وما جرى فيها من أعمال سلب ونهب وهتك للأعراض وتدنيس للحرمات من طرف المرتزقة الصليبيين[8]، فكان شاهدًا على تلك الأحداث ومشاركًا فيها. وبعد مغادرة أسطول الإمبراطور الإسباني الأراضي التونسية بقي كربخال في شمال أفريقيا مدة اثنين وعشرين عامًا بقصد التقصي والاستخبار لصالح الإسبان، ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى وبقي بها حوالي سبعة أعوام وثمانية أشهر قضاها أسيرًا لدى الدولة السعدية، وأتم تأليف كتابه بعد سنة 1571م، وكان الوزان قد أنهى تأليف كتابه وصف أفريقيا في مدينة روما عام 1526م، وسار كربخال على نفس النهج الذي اتبعه الوزان بل إنه "اقتفى أثره حذو النعل بالنعل"[9]. وقد صدر كتاب إفريقيا لكربخال باللغة الإسبانية عام 1573م في غرناطة، وقام د. أبلونكورت D Ablancourt عام 1667 بترجمته إلى الفرنسية ونشره في ثلاثة أجزاء[10].

وعمومًا فإن تلك الأحداث التي عاشها والمدة التي قضاها كربخال بتونس وبلاد الشمال الأفريقي كانت فرصة مناسبة وثمينة للاطلاع على مجمل الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية لتلك البلدان التي استقر بها.

---

(7) De Dalmases, Pablo Ignasio, **Viajeros por El Sahara Español: Antología de relatos viajeros**, (Madrid: Grupo Editorial Sial Pigmalión, Primera Edición, 2016), p.23.

عادل بن محمد جاهل، "أضواء على مجتمع حاحا زمن السعديين من خلال مشاهدات الرحالة الإسباني لويس ديل مارمول كرباخال"، **مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، (**أكتوبر 2019**)** ص74؛ فاتح بلعمري، المدن الساحلية الجزائرية في القرن 10هـ/16م عند مارمول كربخال وأبي الحسن التمقروتي دراسة مقارنة، **المجلة التاريخية الجزائرية، (**2022**)** ص535.

(8) انظر تقديم المترجمين لكتاب أفريقيا لمارمول كربخال، ج1، ص4.

(9) كربخال، **مصدر سابق**، ج1، ص6؛ عادل بن محمد جاهل، **مرجع سابق**، ص74؛ خالد مكرم فوزي، "الأحوال الاجتماعية لمدينة فاس في الربع الأخير من القرن السادس عشر في ضوء كتاب **(**أفريقيا**)** لكربخال"، **مجلة التاريخ والمستقبل**، جامعة المنيا(يناير 2022) ص479.

(10) Martínez, Laura, Martínez María Lara, Descripción general de Áfricay origen del nombre del continente según León el Africanoy, Luis del Mármol Carvajal", **Clásicos Mínimos Fecha de Publicación** (Marzo 2005), P.5.

خالد مكرم فوزي، **مرجع سابق**، ص480.

في ضوء ما سبق فسوف نرصد الأحوال الاجتماعية لتونس خلال القرن السادس عشر من خلال رؤية الرحالة الإسباني مارمول كربخال، ولابد في البداية أن نشير إلى موقع البلاد التونسية وأقسامها في ضوء ما كتبه هذا الرحالة في كتاب "إفريقيا".

أولًا– موقع تونس وأقسامها:

يشير كربخال إلى أن تونس هي المملكة الرابعة من ممالك البربر[11]، وهو يساير الحسن الوزان في هذا التقسيم[12]. وتقع مملكة تونس في أقصى تلك الممالك من جهة الشرق بعد ممالك مراكش، وفاس، وتلمسان[13]. أما حدود تونس فحسب إشارة كربخال، يحدها من جهة الغرب موريتانيا القيصرية وإقليم بجاية عند نهر أمساية، ويحدها مصر من جهة الشرق، والبحر المتوسط من جهة الشمال، وجبال الأطلس الكبير من جهة الجنوب. وتمتد تونس إلى إيالة الزاب التي تشمل جزءًا مهمًا من ليبيا ونوميديا الشرقية (بلاد الجريد)[14].

أما أقسام مملكة تونس، فتنقسم إلى أربعة أقاليم هي: قسنطينة، وتونس، وطرابلس بلاد الغرب، والزاب[15]. وهذا يعني أن مملكة تونس حسب كل من الوزان وكربخال تشمل البلاد التونسية الحالية ومقاطعة قسنطينة ومقاطعة الزاب، ومدينة بجاية من البلاد الجزائرية ومدينة طرابلس جنوبًا[16].

وبالنسبة لإقليم قسنطينة فيحده من جهة الغرب إقليم بجاية عند موقع جيجري، ويحده من الشرق بلاد إفريقية، وفي الجنوب يمر جبل الأطلس، ويحده من الشمال

---

(11) **أفريقيا**، ج1، ص25.

(12) انظر **وصف أفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983)، ج1، ص28.

(13) **المرجع السابق**، ص28؛ كربخال: **مصدر سابق**، ج2، ص391– 400؛ ج3، ص5.

(14) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص5.

(15) الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج1، ص30، 31؛ كربخال، **أفريقيا**، ج1، ص27؛ ج3، ص5.

(16) الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص49؛ كربخال: **مصدر سابق**، ج3، ص5، 6؛ نللي سلامة العامري، **الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لإفريقية في العهد الحفصي**، ط2، (لبنان، دار الفارابي، 2006)، ص46.

البحر المتوسط وخليج نوميديا ما بين جيجري ومصب مجردة عند بنزرت[17]. وبالنسبة لإقليم تونس فهو ثاني أقاليم مملكة تونس، ويحده من الغرب إقليم قسنطينة، ومن الشرق إقليم طرابلس، ومن الجنوب جبال الأطلس وإقليم الزاب وجزء من نوميديا وليبيا الشرقية، ومن الشمال البحر المتوسط ما بين مصب نهر مجردة عند بنزرت، ومصب نهر قابس. وبذلك فإن إقليم قسنطينة إقليم مترامي الأطراف احتوى على عدد مهم من المدن والقرى[18].

أما إقليم طرابلس فيحده غربًا إقليم تونس، وفي أقصى الجنوب يحده نوميديا[19] وليبيا، أما من جهة الشرق فيحده إقليم بنتابوليس كما يسميه اليوم أهل البلد[20].

وبالنسبة لإقليم الزاب فهو يبتدئ غربًا بتخوم صحراء مسيلة، وتحده شمالًا جبال بجاية، وغربًا إقليم بلاد الجريد، وجنوبًا يتاخم الصحاري التي يمر بها الطريق الرابط بين تقورت وورغلة[21].

ثانيًا- الأوضاع السياسية لتونس منذ مطلع القرن السادس عشر حتى عام 1574:

كانت تونس في مطلع القرن السادس عشر للميلاد لا تزال تخضع لحكم الدولة الحفصية، تلك الدولة التي فرضت نفوذها على تونس منذ عام 625هـ/ 1227م واستمر حكمها حتى عام 982هـ/ 1574م. ومنذ العقد الأخير من القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر وتحديدًا بعد وفاة السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان بن محمد (839- 893هـ/ 1435- 1488م) اضطربت أحوال تونس، فأصبح هناك انخفاض تدريجي لقوة السلطة المركزية تحت ضغط البدو المتمردين بالتوازي مع ازدياد قوة

---

(17) كربخال، **أفريقيا**، ج3، ص5.

(18) **المصدر السابق**، ص16، 17.

(19) **المصدر السابق**، ص5.

(20) **المصدر السابق**، ص137.

تمتد بلاد الجريد من السوس الأقصى إلى آخر حدود صحراء الظهرة شرقًا وجنوبًا، وتحاذي جبال الأطلس في الشمال الغربي، تعيش في هذه المنطقة أمم مختلفة من قبائل زناتة، والبربر في الأقاليم المطلة على المحيط الأطلسي. كربخال، **أفريقيا**، ج3، ص137.

(21) كربخال، **أفريقيا**، ج3، ص167.

العثمانيين[22] ودخلت البلاد في فترة صعبة، إذ تزايد تنافس الأمراء على السلطة[23] وكثرت الحروب وضعف الاقتصاد[24]، وتولى في هذه المرحلة حكام ضعاف تكالبوا على السلطة واستنجدوا بالإسبان[25]. وشهدت تلك المرحلة نوعًا من التدهور السياسي العام والتقهقر الاقتصادي النسبي مقارنة مع الغرب المسيحي. وعمومًا فقد تسببت تلك الأوضاع في التدخل الخارجي في البلاد، فاحتد الصراع العثماني الإسباني من أجل احتلال تونس وسائر بلاد إفريقية[26].

---

[22] Tarizzae, M.L, "Early Arab coins of Tunisia the Hafsid (627-982AH/1230-1574 AD)", **Oriental Numismatic Society Information**, (January1980), p.2.

[23] في تلك المرحلة زاد عدد الحكام الذين حكم بعضهم تونس لفترات زمنية قصيرة نتيجة الاضطرابات والصراع حول السلطة، وعدم استقرار الأوضاع، فبعد أبي عمرو عثمان حكم أبو زكريا يحيى بن محمد (893– 894هـ/ 1488– 1489م)، ثم خلفه أبو محمد عبد المؤمن بن إبراهيم (894– 895هـ/ 1489– 1490م)، وبعده أبو يحيى زكريا بن يحيى (895– 899هـ/ 1490– 1494م)، ثم أبو عبد الله محمد بن الحسن (899– 932هـ/ 1494– 1526م)، ثم أبو عبد الله محمد بن محمد (932– 941هـ/ 1526– 1534م)، ثم احتل خير الدين بربروسا تونس (941– 942هـ/ 1434– 1435م)، ثم أعيد أبو عبد الله محمد بن محمد للحكم مرة أخرى (942– 948هـ/ 1535– 1542م) –بمساعدة شارل الخامس ملك إسبانيا– ثم انتزع الحكم أبو العباس أحمد بن محمد (948– 977هـ/ 1542– 1569م)، تلى هذه الفترة خضوع تونس للعثمانيين لفترة مؤقتة (977– 981هـ/ 1569– 1573م)، ثم حكم أبو عبد الله محمد بن محمد (981– 982هـ/ 1573– 1574م) تابعًا لفيليب الثاني ملك إسبانيا. والذي قضى العثمانيون على حكمه وأسروه وأنهوا حكم الحفصيين بصفة نهائية، وأعلنوا تونس إيالة عثمانية منذ عام 982هـ/ 1574م. انظر: كربخال: **مصدر سابق**، ج3، ص29.

Hazard, Harry Williams, **The Numismatic History of Late Medieval North Africa**, (New York: American Numismatic Society, 1952), p.377.

[24] إبراهيم جدلة، **مرجع سابق**، ص31.

[25] أحمد الطويلي، **في الحضارة العربية التونسية**، (تونس، 1988)، ص19؛ حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ط3، (تونس، دار الكتب العربية الشرقية، د.ت)، ص126.

[26] إبراهيم جدلة: **مرجع سابق**، ص8، 31.

ففي حوالي عام 916هـ/1510م قام الأمير الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسن (899- 932هـ/ 1494- 1526م) بتعيين خير الدين بربروسا واليًا على مدينة جربة، معترفًا بذلك باستقلاله الفعلي[27]. غير أن خير الدين انتقل من جربة إلى الجزائر حيث أقام شقيقه عروج إمارة بها. ومن هناك وبمساعدة العثمانيين، وبإيعاز من السلطان العثماني سليمان القانوني (1520- 1566م)[28]؛ قام باحتلال تونس سنة 941هـ/1534م، وأزاح حاكمها أبي عبد الله محمد بن محمد (932- 941هـ/ 1526- 1534م) عن السلطة، معلنًا سيادة العثمانيين، فما كان من الأمير محمد الحفصي – بناء على نصيحة أحد أصدقائه من النصارى الجنويين الذين أسلموا[29]- إلا أن هرب إلى إسبانيا، واستعان بإمبراطورها شارل الخامس[30] الذي قاد بنفسه أسطولًا يضم جنودًا إسبان –كان مارمول كربخال من بينهم- وألمان وبرتغاليين وجنويين واحتل تونس عام 942هـ/1535م[31]. ورغم استنجاد خير الدين بربروسا بالسلطان العثماني سليمان

---

[27] كان هذا القرار من الحاكم الحفصي دلالة على حالة الضعف الشديد التي وصلت إليها الدولة الحفصية وعجزها عن مواجهة القرصنة الأوروبية على سواحلها، فقد كان تعيين خير الدين بربروسا واليًا على جربة مكافأة له بعد استيلائه وأخيه عروج على سفينة كانت تحمل خمسمائة جندي من القراصنة الأوروبيين، وقدموها إلى السلطان الحفصي أبي عبد الله الحسن الذي فرح فرحًا كبيرًا بهذا الإنجاز. انظر، آسيا غزيل، عمار عمورة، **الموجز في تاريخ الجزائر**، (الجزائر، دار ريحانة، 2002) ص88؛ آسيا غزيل ومنال مسعودة، **الصراع الإسباني العثماني على تونس خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، (ماجستير**: كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة غرداية، الجزائر، 2020)، ص39.

[28] حسن حسني عبد الوهاب، **مرجع سابق**، ص126.

[29] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص32.

[30] كانت هذه الاستغاثة فرصة واتت شارل الخامس للانتقام من قرصان مسلم يقض مضجع المسيحية جمعاء على حد وصف كربخال. ولم يلتفت مولاي محمد الحفصي لنصيحة حاشيته من الفقهاء الذين بينوا له أنه لن ينال رضا رعاياه إذا عاد إلى بلده يعززه جيش من النصارى. **أفريقيا**، ج3، ص32.

[31] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص31، 32؛ جون. ب. وولف، **الجزائر وأوروبا، 1500-1830**، ترجمه أبو القاسم سعد الله، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986)، ص48.

القانوني (1520– 1566م) إلا أن الأخير لم يستطع نجدته لانشغاله بالحرب في آسيا، والتي كان قد ألقى فيها بأكثر قواته[32].

وعمومًا باحتلال الإسبان لتونس أُعيد أبو عبد الله محمد إلى منصبه، ولكن بصفته تابعًا للإمبراطور الإسباني، ووقعت بينهما معاهدة عبرت عن الذل والهوان الذي حل بحكام تونس[33]، إذ اضطر أبو عبد الله إلى دفع جزية سنوية قدرها 12000 دوكة. وبمساعدة الأدميرال الجنوي أندريا دوريا Andrea Doria، سيطر أبو عبد الله محمد مرة أخرى على معظم المنطقة الساحلية لكن المناطق الداخلية، بما في ذلك القيروان، ظلت تحت سيطرة العرب البدو[34].

في عام 948هـ/1542م، أطيح بالأمير الحفصي محمد مرة أخرى، ولكن هذه المرة بواسطة ابنه أبي العباس أحمد الذي أصبح حاكمًا على تونس (948– 977هـ/ 1542– 1569م)، وحاول إثارة الإسبان والعثمانيين ضد بعضهم البعض. ولكن في عهده، قام العثمانيون بتعيين دراجوت Dragut أو دارغوث كما يسميه كربخال[35]– وهو قرصان مستقل يعمل انطلاقًا من مدينة المهدية– واليًا عثمانيًا على طرابلس الغرب، وقام باحتلال قفصة والقيروان. كما تحرك حاكم الجزائر العثماني أولوج علي

Tarizzae, M.L: **Op.cit,** p.2.

[32] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص33.

والمقصود بحرب العثمانيين في آسيا الحرب ضد الصفويين، ولقد استطاع العثمانيون دخول تبريز وبغداد والانتصار على الدولة الصفوية. وللمزيد، انظر رأفت الشيخ، **تاريخ آسيا الحديث والمعاصر**، (القاهرة، دار عين للدراسات والبحوث، 2004).

[33] عزيز سامح إلتر، **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**، ترجمة محمود علي عامر، (القاهرة، دار النهضة العربية، 1989) ص؛ 119، 120؛ محمد العروسي المطوي، **الحروب الصليبية بين الشرق والغرب**، ط2، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989)، ص270.

[34] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص31، 32؛ محمد العروسي المطوي، **مرجع سابق**، ص270.
Tarizzae, M.L: **Op.cit**, p.2; Rousseau, Alphonse, **Annales Tunisiennes ou aperçu sur la Régence de Tunis**, (Tunis: édition Bouslama, 1980), p.20.

[35] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص67.

شرقًا وطرد الحاكم الحفصي، وعُين واليًا على تونس عام 977هـ/1569م. وفي هذه الأثناء، تحالفت إسبانيا والبندقية ضد العثمانيين، فقام يوحنا النمساوي John of Austria، شقيق فيليب الثاني Philip II ملك إسبانيا، باحتلال تونس مرة أخرى عام 981هـ/1573م، ونصب هناك أبا عبد الله محمد الحفصي (981- 982هـ/ 1573-1574م) شقيق أبي العباس أحمد، فأخذ يحكم تابعًا لفيليب الثاني[36]. وفي ضوء ذلك، وبعد فترة وجيزة قام العثمانيون بقيادة سنان باشا Sinan Pasha وبمساعدة الحكام المحليين من الجنوب والغرب بإعادة السيطرة على تونس عام 982هـ/ 1574م[37].

وهكذا تم تخليص تونس من الحكم الإسباني والحفصي[38]، وأُسر آخر الحكام الحفصيين أبو عبد الله محمد، وتم اقتياده إلى اسطنبول، وأصبحت تونس إيالة عثمانية على مدى القرون الثلاثة التالية[39].

ثالثًا- عناصر سكان البلاد التونسية وصفاتهم:

في المجمل أشار كربخال إلى أن معظم مملكة تونس يغلب عليها طابع البادية، يسكنها تجمعات كبيرة من قبائل العرب، والبربر[40]. وقد انتشرت قبائل البربر في كل الأقاليم الأربعة للمملكة التونسية، ففي إقليم قسنطينة سكنوا مدينة أشتورة، ومدينة القل

---

[36] Hazard, Harry Williams, **Op.cit**, p.377; Tarizzae, M.L, **Op.cit**, pp.2, 3.

[37] عبد الكريم غلاب، **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية: العهد التركي في تونس والجزائر**، ط2، (لبنان: دار الغرب الإسلامي، 2005) ج2، ص343؛ الشافعي درويش، "علاقات تونس مع جمهورية البندقية خلال العصر الحديث من العداء إلى السلمية"، **مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، (يونيو 2021) ص334.

[38] محمود مقديش، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق على الزواري ومحمد محفوظ، مجلد2 (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988)، ص71.

[39] Tarizzae, M.L, **Op.cit**, pp.2, 3.

[40] كربخال، **أفريقيا**، ج3، ص5.

التي سكنتها قبائل زواوة[41]، وبمدينة تبسة سكن بربر هوارة[42]، الذين كانوا يفضلون إقليم قسنطينة وخاصة منطقة التل الأعلى[43].

وهناك بعض المدن بإقليم قسنطينة سكنها خليط من العرب والبربر، ففي مدينة قسنطينة نفسها سكن العرب إلى جوار الأغلبية من البربر، كما استقر العرب والبربر بمدينة عنابة، ومدينة بنزرت وإن كان كربخال قد وصف تعسف العرب في مضايقة باقي سكان هذه المدينة. كما كان يسكن مدينة تيفش بنفس الإقليم خليط من العرب والبربر. وبالبوادي بإقليم قسنطينة سكن العرب أما بجبال هذ الإقليم فقد سكن البربر وخصوصًا بربر زواوة[44]. كما سكن إقليم تونس خليط من العرب والبربر أيضًا. وكان غالبية سكان إقليم الزاب من قبائل البربر، وكذلك الحال في إقليم طرابلس الذي سكنه البربر في الغالب؛ لأن معظم جهات هذا الإقليم صحراوية قافرة[45].

ورغم أن رواية كربخال تحمل العرب أحداث الفوضى وأعمال السلب والنهب على الدوام، فإننا يمكننا القول بأن تونس عرفت انسجامًا سكانيًا باندماج القبائل العربية في المجتمع وتميزت بهذا الاندماج عن مجتمع المغرب الأقصى، ويشهد على ذلك انتشار العرب في المدن التونسية وأحوازها أيضًا[46].

---

[41] كانت زواوة أقرب القبائل إلى مدينة بجاية خلال العهد الحفصي؛ لأنها كانت تحيط مباشرة بهذه المدينة؛ ولأن المكان الذي بنيت فيه مدينة بجاية كان يقع في مجال امتداد قبيلة زواوة. انظر: ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1959)، ج6، ص263؛ صالح بعيزيق، "الاندماج القبلي في مجتمع المدينة: مثال قبيلة زواوة ومدينة بجاية في العهد الحفصي"، **المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية**، (2004)، ص117.

[42] كربخال، **أفريقيا**، ج3، ص6، 7، 15.

[43] روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15**، ترجمة حمادي الساحلي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988)، ص329.

[44] كربخال، **أفريقيا**، ج3، الصفحات: 8، 10، 11، 14، 15، 16.

[45] **المصدر السابق**، ص17، 100.

[46] نللي العامري، **مرجع سابق**، ص48.

وإلى جانب العرب والبربر؛ سكن **اليهود** البلاد التونسية خلال القرن السادس عشر، فخلال ذلك القرن قدمت أعداد كبيرة من يهود إسبانيا، على إثر طرد اليهود من إسبانيا والبرتغال الذي حدث عام 897هـ/1492م في عهد الملك فرديناند والملكة إيزابيلا[47]؛ وفر معظم هؤلاء اليهود إلى البلدان الإسلامية في شمال وغرب إفريقيا[48].

وأصبح اليهود يشكلون تجمعات مهمة في المدن الرئيسة، واستطاع هؤلاء اليهود المحافظة على مكانتهم في المجتمع التونسي بفضل صناعاتهم التي تميزوا بها، وبفضل نشاطهم التجاري، وهيمن بعضهم على المبادلات التجارية في مدن تونس والقيروان وسوسة والحمامات وبنزرت وصفاقس وقابس والكاو[49].

كما سكن **نصارى أوروبا** تونس أيضًا، فقد سمحت لهم السلطة الحفصية مزاولة النشاط التجاري في موانها إذ درت تلك التجارة أرباحًا كبيرة للحفصيين؛ مكنتهم من عدم استنزاف الأهالي بالضرائب، كما ألجأتهم تلك المكاسب إلى الاعتماد على عناصر من المرتزقة في الجيش كان من بينهم النصارى الأوروبيين أيضًا والذين بلغ عددهم في مطلع القرن السادس عشر 1500 جندي، وكان هؤلاء يمثلون وسيلة لا مثيل لها للسيطرة والهيمنة بالنسبة للحفصيين؛ نظرًا لإخلاصهم وتعلقهم المطلق بالسلطان

---

[47] كانت حادثة طرد اليهود؛ لأنهم حرضوا أقرانهم من اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية والذين عرفوا بالمارونيين Marranos على عدم الولاء للمسيحية، انظر:

Godbey, Allen, **The lost tribes a myth**, (Duke University press, 1930), pp.246-247; Monteil, Charl, Problemes du Soudan Occidental: Juifs et Judaises, **Hesperis**, Tom. XXXVIII, (Année 1951), pp.269, 270; Windsor, Rudolph, **From Babylon to Timbuktu: a history of the ancient black races including the black Hebrews**, (USA: Lushena Books, 19th Printing, 2003), p.116.

[48] Godbey, Allen: **Op.cit**, pp.246-247, Monteil, Charl: **Op.cit**, pp.269, 270.

[49] رضا بن رجب، **يهود البلاط ويهود المال في تونس العثمانية (1685– 1857م)**، (بيروت: دار المدار الإسلامي، 2010)، ص 72، 101؛ وسام صحراوي، لويزة عطاء الله، **العناصر السكانية في إيالتي الجزائر وتونس في العهد العثماني "العنصر الكرغلي أنموذجًا"، (ماجستير**: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أكلي ولحاج، الجزائر، 2021) ص64.

وتفانيهم في القتال ومهارتهم في الحروب، وامتلاكهم لأحدث الأسلحة[50]. ونتيجة هذه المكاسب ولشدة ولائهم للحفصيين، ولحرصهم على مساعدة بني جلدتهم من نصارى الإسبان؛ فقد تطوع بعضهم بالفرار إلى إسبانيا قبل قدوم حملة شارلكان وأخبروا الإمبراطور بأن بربروسا منهمك في تحصين منطقة حلق الوادي، وكان ذلك سببًا في تعجيل الإمبراطور بالتحرك في اليوم التالي مباشرة نحو تونس لاحتلالها[51].

أما فيما يخص **تعداد السكان** فلم تسعفنا الإشارات التي وردت عند كربخال في التعرف على أعداد سكان المدن التونسية باستثناء حصره لحالات فردية فقط، من ذلك مدينة بنزرت والجهات التابعة لها بإقليم قسنطينة والتي بلغ عدد سكانها أربعة آلاف نسمة[52].

أما صفات السكان، فقدم لنا كربخال بعض الأوصاف التي كشفت عن الطابع التجسسي لكتابات ذلك الرحالة في بعض الأحيان، ودليل ذلك أنه كان يهتم بوصف السكان من حيث شراستهم أو مسالمتهم بطريقة انتقائية، من ذلك ما أشار إليه بأن معظم مملكة تونس سكنها تجمعات كبيرة من قبائل العرب، والبربر، وهذه الجماعات كانت من القوة والشكيمة لدرجة أن حكام أقاليم تونس كانوا يسعون لخطب ودهم، كما إنهم كانوا يتنازلون لهم عن جزء من إيراداتهم. كما وصف كربخال سكان مدينة باجة بإقليم تونس بأنهم "متهورون يتحينون الفرص للاندفاع وراء العصيان"[53]، ولم يرد هذا الوصف عند الوزان مطلقًا، بل وصف سكان باجة بأنهم "متحضرون"[54]. ووصف كربخال سكان قرية المرسى التابعة لمدينة قرطاجة بإقليم تونس بتميزهم بالعزة

---

[50] محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، ترجمة محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط3، (تونس: دار سراس للنشر، 1993)، ص56، 57.

[51] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص34.

[52] **المصدر السابق**، ج3، ص10.

[53] كربخال، **مصدر سابق**، ص96.

[54] **وصف أفريقيا**، ج2، ص66.

والأنفة[55]. أما أهالي مدينة تبسة بإقليم قسنطينة فقد وصفوا في عام 1550م بأنهم "يتميزون بالبخل والقظاظة ومعاداة الأجانب"، وطالما تجرأوا أكثر من مرة على قتل حكامهم[56]. بينما وصف سكان جبال قسنطينة بأنهم أكثر ذكاء من أهالي جبال بجاية. ووصف أهالي جبال قسنطينة بأنهم كانوا حريصين كل الحرص على حريتهم، ولا يؤدون الإتاوة إلا إذا خرج إليهم عسكر الملك في طلبها. ثم أقر كربخال بأن هؤلاء السكان لو اجتمعوا لكانوا قادرين على غزو جزء عظيم من البلاد التونسية[57]، وهذا يبين الغرض التجسسي لكربخال.

والغريب أن كربخال رغم نقله الكثير من المعلومات والأوصاف نقلًا كاملًا عن الحسن الوزان، سواء عن المدن أو ساكنيها، فإنه غض الطرف عن بعض الأوصاف لسكان المدن التونسية، مثال ذلك أن الوزان وصف سكان مدينة القل بأنهم "رجال شجعان أبطال"، كما وصف سكان مدينة قسنطينة بقوله "والقسنطينيون شجعان مقاتلون"، كما وصف عرب قبيلة رياح القاطنون بالقرب من مدينة قسنطينة بأنهم "أنبل العرب بإفريقية وأشدهم بأسًا"[58]. فإن كربخال أسقط مثل هذه الصفات تمامًا، وأشار إلى أن أهل مدينة القل بإقليم قسنطينة "طيبون متمدنون بفضل التعامل التجاري مع أوروبا"[59]. وهذا يبين أن كربخال خضع لمقتضى المصلحة المسيحية، وباعتباره كان مقربًا من البابا والإمبراطور فإنه كان يكتب بمنطق القوي يسود على الضعيف، وإذا كانت دافعية الوزان كانت بغرض وضع صورة شاملة لدراسة الآخر دون تغيير في

---

[55] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص5، 15، 19.

[56] الحسن الوزان، **مصدر سابق**،ج2، ص64؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص5، 15، 19.

[57] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص16.

[58] **وصف أفريقيا**، ج2، ص54، 56، 57.

[59] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص6.

يشير الحسن الوزان إلى أن أهل مدينة القل أثرياء جدًا، وليس على ساحل مملكة تونس مدينة أغنى منها؛ بفضل تعاملهم التجاري مع تجار جنوة الإيطاليين. انظر **وصف أفريقيا**، ج2، ص54.

حقيقة الحوادث التاريخية قدر المستطاع، فإن كربخال على العكس من ذلك فقد كان تأليفه بغرض تغيير نظرة الإمبراطور تجاه الآخر المسلم وتحريضه عليه[60].

كما إن كربخال بهذا النهج ساير الاتجاه السائد في الكتابات الغربية التي سبقت الاستعمار الغربي للدول العربية والأفريقية والتي اصطبغت بالنظرة الاستعلائية التي دارت حول تمدن الأوروبيين وتفوقهم الحضاري على الشعوب العربية والأفريقية. وتلك الحالة اتفقت أيضًا مع دوافع التأليف الأوروبي في بداية عصر النهضة والتي اتسمت غالبًا بتمجيد أمة على أمة، ومفاضلة مجتمع على آخر[61].

ومن الواضح أيضًا أن كربخال لم يكن يريد –عن عمد– تسجيل مثل هذه الصفات التي تمتدح أخلاق التونسيين المسلمين وشجاعتهم وبطولتهم، فذلك الميدان لا يريد أن يعقد فيه المقارنة مع الجند النصارى الذين يكيل لهم كثيرًا من المدح لبطولتهم وشجاعتهم وقدراتهم الحربية الفائقة، كما نرجح أنه أراد إخفاء مثل هذه الصفات الخاصة بالتونسيين حتى لا يبث الخوف في نفوس الغزاة الإسبان حال إقدامهم على غزو المدن التونسية.

رابعًا– وصف كربخال لمساكن التونسيين، وملابسهم، وطعامهم:

1– المساكن:

قدم كربخال في بعض المواضع إحصاء لعدد الدور في بعض المدن التونسية، كما قدم وصفًا لتلك المساكن، من ذلك تقديره لعدد الدور المسكونة في مدينة أشتورة بإقليم قسنطينة بمائتي دار تقريبًا[62]، وبلغ عدد الدور المسكونة في مدينة قسنطينة نفسها ثمانية آلاف كانون[63]. بينما بلغ عدد دور مدينة ميلة بنفس الإقليم حوالي ثلاثة آلاف

---

[60] إدوارد سعيد، **تعقيبات على الاستشراق**، ترجمة صبحي حديدي، (بيروت، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، 1996) ص45؛ محمد بومدين، **مرجع سابق**، ص197، 198.

[61] محمد بومدين، **مرجع سابق**، ص197.

[62] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص6.

[63] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص56؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص 11.

دار[64] وإن لم يكن ذلك في وقت زيارة كربخال؛ بدليل قوله "في سالف عهدها"[65]. أما في إقليم تونس فقد أحصي كربخال عدد مساكن قرية المرسى التابعة لمدينة قرطاجة بأن مساكنها بلغت خمسمائة مسكن. وبمدينة القيروان ربضان، الربض الأول جهة الشمال ضم أكثر من ألفي دار، والثاني جهة الجنوب وبه ما يقدر بألف دار. أما مدينة تونس وأرباضها، فكان مجموع ما فيها من الدور المسكونة يزيد عن العشرين ألفًا، منها حوالي ثلاثمائة دار للنصارى[66].

توقف كربخال بالوصف في بعض المواضع، من ذلك حديثه عن دور مدينة عنابة بإقليم قسنطينة بأنها متقنة البناء، وأسطح تلك الدور ذات سقوف مستوية مغطاة بطبقة من الجير والرمل والأسمنت. كما توجد بتلك المدينة بساتين ومتنزهات، لكن الجهة الشرقية لمدينة عنابة عبارة عن تلال ليس بها مدينة ولا قرية، وإنما هي مجال لانتجاع بعض قبائل العرب والبربر بماشيتهم[67]. ووُصفت دور مدينة قسنطينة بالحسن والجمال وأنها منتظمة ومتصلة بعضها ببعض، وتمتاز أزقتها وساحاتها بتخطيط بديع. كما وصفت مدينة تيفش بأنها "ذات بنايات رائقة" أي فائقة الحُسن، ولكن لم يبق منها وقت زياة كربخال سوى ربض صغير يقيم به بعض البربر بسبب سوق تقام هناك كل أسبوع يقصدها العرب والبربر لشراء حاجاتهم. أما مساكن مدينة بنزرت بنفس الإقليم ففي جنباتها وجدت مساكن اتسمت ببساطتها، فقد سكنها فقراء الصيادين والمزارعين[68].

الكانون هو دار صغيرة أو تجمع سكني يضم حوالي خمسة أشخاص في المتوسط. انظر: أحمد توفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر 1850– 1912**، (الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1983)، ص184.

[64] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2 ص60؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص13.

[65] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص13.

[66] **المصدر السابق**، ص 19، 20.

[67] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص8، 9.

[68] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص56، 62، 63؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص10، 11، 14.

أما بالنسبة لدور إقليم تونس فقد بنيت معظم دور مدينة تونس بالحجارة أو الآجر والجير. أما السقوف فهي من الجبس المزخرف بالعديد من الألوان؛ إذ لا توجد في تلك الجهات الأخشاب الكافية لتغطية تلك السقوف، وعمومًا فقد كانت في غاية الملائمة مع ظروف تلك المدينة؛ فقد كانت ذات سطوح متدرجة بحيث أتاحت تصريف مياه الأمطار نحو الخزانات. أما أرضية الغرف فعبارة عن مربعات صغيرة من الأسمنت. وليس في تلك الدور على العادة غير طابق واحد، وأبهاؤها باردة نظيفة[69]. وقدم الوزان تفسيرًا لذلك بأن المنازل تكونت غالبًا من طابق أرضي تم تغطية أجزاء منه للاحتماء بها أيام الصيف، بينما بقى جزء منه مكشوف لاستجلاب الإضاءة والهواء البارد أيام الشتاء[70]. ووصف كربخال أزقة مدينة تونس وساحاتها بأنها غير منتظمة البناء[71]. ووصف أيضًا دور مدينة المنستير بإقليم تونس أيضًا بأنها "رائقة البناء"[72].

وفي المجمل فقد أشاد الرحالة الحسن الوزان بالمساكن التونسية، وفي ذلك يقول: "معظم الديار حسنة المظهر مبنية بحجارة مزلوجة ومنحوتة على أكمل وجه، سقوفها مزدانة بالفسيفساء والجص بطريقة فنية عجيبة"[73].

2-الأطعمة والمشروبات:

يُفهم من الأخبار التي أوردها كربخال تنوع الأطعمة والمشروبات في البلاد التونسية، فكان غذاؤهم يعتمد على بعض المحاصيل الغذائية المهمة كالحنطة (القمح) والذي كانوا يصنعون منه الخبز[74]، وكان الخبز التونسي مميزًا، إذ كان شديد البياض

---

[69] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص22، 23.

[70] **وصف أفريقيا**، ج2، ص53؛ جميلة مبطي المسعودي، **المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها سنة 621هـ وحتى سنة 893هـ**، (ماجستير: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 2000)، ص159.

[71] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص20.

[72] **المصدر السابق**، ص67.

[73] **وصف أفريقيا**، ج2، ص77.

[74] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص21.

بالغ اللذة[75]. وقد اشتهر الخبز فعليًا أو الاعتماد على الحبوب الغذائية في أغلب المأكولات في تونس خلال تلك الفترة؛ لا سيما أن التونسيين تميزوا في مأكلهم بالبساطة والزهد، فلم تعرف موائدهم البذخ والإسراف[76].

ومما ساعد على ذلك وفرة الحبوب ولا سيما القمح بكثير من الجهات التونسية، ففي إقليم قسنطينة كثرت الحنطة في الأراضي المجاورة لمدينة القل، كما وجدت أيضًا ببعض جهات مدينة أشتورة، وكثرت بمدينة سكيكدة فكان الأهالي يبادلونها بالمنتجات الأوروبية، ووجدت أيضًا ببعض التلال الخصبة الواقعة شرقي مدينة عنابة، كما زرعت الحنطة في السهول المحيطة بمدينة بنزرت[77]، وكثر القمح أيضًا بمدينة ميلة[78]. وفي الأماكن التي ندرت فيه الحنطة مثل مدينة تونس بسبب كسل السكان وقلة نشاطهم في أعمال الفلاحة، وبسبب أنهم كانوا لا يزرعون إلا الأراضي المجاورة لهم خوفًا من الأعراب؛ كانت الحنطة تجلب إليهم من المدن الأخرى[79].

وميز كربخال بين الخبز الذي كان يأكله الأثرياء فكان يصنع من دقيق القمح، والخبز الذي كان يأكله العامة فكان يصنع من دقيق الشعير[80]؛ لرخص ثمنه ولأنه في متناول الجميع[81]، وكانوا يأكلونه بعد غمسه في الزيت أو السمن[82]. وهناك بعض المدن التي كانت لا تجود بها زراعة القمح، ولكن اشتهرت بزراعة الشعير، فكانوا

---

[75] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص75؛ ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، تحقيق محمد الشمام، (تونس، المكتبة العتيقة، د.ت)، ص305.

[76] Valensi, Lucette, **Fellahs tunisiens. L'économie rurale et la vie des campagnes aux XVIIIe et XIXe siècles**, (Paris: 1977), pp.239, 246, 247.

[77] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص6، 7، 8، 10.

[78] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2 ص60.

[79] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص21.

[80] **المصدر السابق**، ص21.

[81] برنشفيك، **مرجع سابق**، ج2، ص285.

[82] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص21.

يصنعون منه الخبز مثل مدينتي المنستير وصفاقس بإقليم تونس[83]. وكان الزيت المستخدم في الطعام يصنع من الزيتون الذي كثرت أشجاره في بعض المدن ولا سيما في مدينة تونس، لذلك زاد زيت الزيتون عن حاجة السكان فقاموا بحمله للبيع، وكان يصل إلى مصر[84]. وكثرت أشجار الزيتون أيضًا في مدن سوسة والمنستير وطبلبة بإقليم تونس[85]. وكذلك في مدينة إفريقية بنفس الإقليم، وفي جزيرة جربة بإقليم طرابلس[86].

بالإضافة إلى الخبز، اعتمد التونسيون في طعامهم على ألبان الماشية ولحومها، فقد كثرت المواشي في الأقاليم التونسية، من ذلك وجودها بكثرة في إقليم قسنطينة وخاصة في الأراضي المجاورة لمدينة القل، كما امتلك الأهالي المواشي الكثيرة ببعض جهات مدينة أشتورة، وكذلك بمدينة عنابة بذات الإقليم، وهذه المواشي كانت مصدرًا مهمًا للغذاء سواء اللحوم، أم الألبان، أم السمن، فنتيجة كثرة المواشي بمدينة عنابة فقد زاد السمن عن استهلاك أهل المدينة فكانوا يبيعون الفائض منه للسفن القادمة عليهم[87]. ووصف الوزان ذلك الفائض الكبير من إنتاج السمن والزُبد لدرجة أن الأعراب من سكان عنابة يكادون لا يحصلون في مقابله على المال عند بيعهم له[88].

---

(83) الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص84؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص67، 94.

(84) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص23؛ أبو القاسم عظوم المرادي، **كتاب الأجوبة**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ج5 (تونس، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، 2004)، ص335؛ محمد البشير رازقي، "الاقتصاد والمجتمع في البلاد التونسية في النصف الثاني من القرن السادس عشر من خلال نوازل قاسم عظوم"، **مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، موريتنيا،(2018) ص30.

(85) الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص83؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص 65، 67، 69.

(86) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص78، 103.

(87) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص6، 7، 8.

(88) **وصف أفريقيا**، ج2، ص61.

بالإضافة للماشية اعتمد سكان بعض المدن التونسية في غذائهم على الصيد البري، فبجوار مدينة عنابة مثلًا كانت توجد بعض الجبال من جهتي الجنوب والشرق كان يقصدها الأهالي للصيد[89].

كما اعتمدت بعض المدن في غذائها على الأسماك، ولا سيما المدن الساحلية[90]، منها مدينة بنزرت بإقليم قسنطينة التي كثرت في بحيرتها أسماك الشابل، وأسماك المرجان التي بلغ وزن الواحدة منها من خمسة إلى ستة أرطال، وقد اعتاد أهالي هذه المدينة صيد هذه الأسماك وغيرها من أنواع الأسماك الأخرى، وكانوا يعتمدون عليها في غذائهم ويبيعون الفائض منها في الأسواق[91]. وكذلك الحال بالنسبة لسكان مدن نبلة والحمامات وصفاقس بإقليم تونس الذين عاشوا على صيد الأسماك. كما اعتمد أهالي مدينتي قابس وزوارة بإقليم طرابلس على الأسماك في غذائهم، وكان أغلبهم صيادين[92].

أيضًا كانت التمور من أهم الأطعمة في البلاد التونسية، ففي إقليم قسنطينة كثر التمر في بعض المدن مثل عنابة، وكان ثمنه غاليًا حسب شهادة كربخال الذي ذكر بأنه شاهد التمر يباع في عنابة بأربعة إلى ستة دراهم للرطل الواحد. وكثر التمر أيضًا في بعض جهات إقليم طرابلس مثل جزيرة جربة. ولقلة التمر في بعض المدن الأخرى مثل قسنطينة فقد استوردته من ليبيا[93]، وهذه الرواية تخالف ما ذكره الوزان بدليل قوله "ولا توجد مدينة في إفريقية يباع فيها التمر بثمن بخس كقسنطينة"[94].

كما كثرت الفواكه بأنواعها المختلفة في الأقاليم التونسية، ففي إقليم قسنطينة ولا سيما في الأراضي المجاورة لمدينة القل انتشرت أشجار الفاكهة[95]، واشتهرت مدينة

---

[89] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص8.

[90] جميلة مبطي المسعودي، **مرجع سابق**، ص154.

[91] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص68؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص10.

[92] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص63، 94، 101، 119.

[93] **المصدر السابق**، ص11، 103.

[94] **وصف أفريقيا**، ج2، ص56.

[95] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص6.

ميلة بالفواكه ولا سيما التفاح[96]، في حين امتازت مدينة عنابة بالعنب؛ ولذلك سماها العرب بذلك الاسم، كما وجد بعنابة الجنان والبساتين التي اشتهر بها كثير من الفواكه[97]، وكذلك الحال بمدينة تبسة التي أحاطت بها غابات من الأشجار المثمرة[98]. ورغم وجود الجنان في السهل المحيط بمدينة قسنطينة إلا أنها لم تكن تنتج كثيرًا من الفاكهة، ولم تكن ثمارها من أجود الثمار، وعلل كربخال ذلك بأن أهلها لم يحسنوا فلاحتها. وبجبال إقليم قسنطينة وجدت الكثير من الفواكه، ولا سيما التين وغيره من الثمار التي كانت تتزود منها جميع المدن المجاورة[99].

وفي إقليم تونس تميزت مدينة قمارت بكثرة الفواكه والخضروات وقصب السكر، وكذلك قرية المرسى التابعة لمدينة قرطاجة بإقليم تونس التي كان بها الفواكه المختلفة الأنواع والأحجام[100]، وعرف عن مدينة قرطاجة نفسها كثرة ثمارها خاصة من الخوخ والرمان والزيتون والتين، وكانت تونس تتزود بالفواكه من قرطاجة[101]. كما امتازت مدينة تونس نفسها بكثرة فواكهها وثمارها وخاصة من البرتقال والليمون والزيتون[102]. وعرف عن مدينة أريان كثرة بساتينها من الفواكه والأشجار المثمرة، وخاصة أشجار الخروب التي وجدت بكثرة في مدينة القيروان أيضًا[103]، وكذلك مدينة سوسة في نفس الإقليم اشتهرت بتمورها وتينها وغيرهما من الفواكه[104]، وكثرت الفاكهة أيضًا في مدينة المنستير ولا سيما المشمش والتين والتفاح والرمان[105].

---

[96] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2 ص60.

[97] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص7، 8.

[98] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص64؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص15.

[99] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص12، 16.

[100] **المصدر السابق**، ص19، 61.

[101] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص70.

[102] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص23.

[103] **المصدر السابق**، ص62، 98.

[104] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص83؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص65.

[105] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص85.

وبخلاف إقليمي تونس وقسنطينة، كثرت الفاكهة ولا سيما العنب بجزيرة جربة بإقليم طرابلس، وانتشرت أشجار الفاكهة ببعض جهات إقليم الزاب أيضًا[106].

أما فيما يتعلق بالمشروبات فقد أشار كربخال إلى بعض هذه المشروبات التي اشتهرت بها بعض المدن التونسية، لا سيما مدينة تونس التي عرف أهلها عصير البرتقال، وعصير الليمون[107].

3- الملابس:

قدم لنا كربخال صورة عن الملابس التونسية أيضًا، فقد بين شهرة بعض المدن بصناعة الملابس منها مدينة سكيكدة بإقليم قسنطينة حيث كان الأهالي يتبادلون المنتجات الأوروبية بما عندهم من أغطية ومنسوجات. كما ارتدى التونسيون الملابس المصنوعة من الصوف لوفرة الماشية ببعض الجهات، مثل مدينة عنابة بذات الإقليم، حتى إن السفن التجارية كانت تقصد مرسى هذه المدينة لشراء الصوف وغيره من السلع[108]. وكذلك كان أهالي مدينة قسنطينة يرتدون المنسوجات الصوفية، كما ارتدوا أيضًا المنسوجات الحريرية والكتانية واشتهروا بصناعتها[109]، كما برع أهل مدينة عنابة في المنسوجات الكتانية[110]. وتميز أهالي جبال قسنطينة بجودة المنسوجات التي يصنعونها، واشتهر أهالي مدينة ميلة بارتداء العباءات القصيرة، والزرابي التركية وكانوا يصنعون هذه الملابس بأنفسهم[111]؛ فقد كان لبس عموم السكان في البلاد التونسية عبارة عن ثياب قصيرة تغطي الركبتين فقط[112].

---

(106) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص103، 137، 138.

(107) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص21.

(108) **المصدر السابق**، ص7، 8.

(109) الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص56؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص11.

(110) الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص61.

(111) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص13، 16.

(112) برنشفيك، **مرجع سابق**، ج2، ص289.

أما إقليم تونس فقد اشتهرت مدينة تونس بالمنسوجات التي برع أهلها في صناعتها؛ لأن خيوطها أدق وأحسن مما كانت عليه هذه الصناعة في باقي المدن الأخرى. وكان لباس الأعيان والوجهاء ورؤساء القبائل يصنع من جلود الأغنام، واشتهرت تلك الصناعة بمدينة القيروان[113] التي برعت في الصناعات النسيجية بشكل عام، فكان يصنع بها كميات عظيمة من الأقمشة التي بلغت حد الإتقان، وكان نساؤها ينسجن الغزل بإتقان شديد[114]. ومن واقع شهادة رحالة إسباني آخر وهو دييجو دي هايدو Diego de Haedo الذي زار بلدان شمال أفريقيا ومر بتونس والجزائر، في مطلع القرن السابع عشر، فقد أسهم الأندلسيون بمهارتهم في صناعة النسيج بالمدن الساحلية التونسية، وغيرها من بلدان شمال أفريقيا[115].

وتجدر الإشارة إلى أن صناعة النسيج كانت قد شهدت تطورًا ملموسًا خلال العهد الحفصي، وارتفعت مكانة النساجين في المجتمع، حتى أصبحت صناعاتهم من ضمن الصناعات الرفيعة المخصصة للوجهاء[116].

ولبس التونسيون العمامات أيضًا، ففي مدينة تونس صُنعت تلك العمامات الرفيعة المسماة بالعمامات التونسية[117]، وكانت تُصنع من القماش الملفوف حول الرأس وكان يرتديها الفقهاء والعلماء والتجار، ورجال البلاط الحفصي، أما الأعراب ورجال البادية فكانوا يلفون العمامات حول الرقبة، ثم يلفونها حول رؤوسهم، ويتلثمون بالطرف الباقي

---

[113] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص20، 98.

[114] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص74؛ محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، ج1 (تونس، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1999)، ص477.

[115] Diego de Haëdo, **La Topographie d'Alger**, (Alger: Grand Alger livres, De A. Berbrugger et Dr. Monneau, in Revue Africaine, T.20, 1876), pp. 145, 147, 163.

[116] Brunshvig, R., **Les métiers vils en Islam, Etudes d` Islamologie**, 2T, (Paris: 1971), pp. 145, 160.

محمد حسن، **مرجع سابق**، ص478.

[117] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص75؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص21.

منها تحت الذقن[118]. كما لبس التونسيون الطرابيش التي كان يصنعها أهالي مدينة محرس بإقليم طرابلس[119].

أما النساء التونسيات فكن يضعن البراقع على وجوههن عند الخروج[120]، وفي ذلك يقول الحسن الوزان "السيدات التونسيات يرتدين لباسًا حسنًا ويتأنقن في زينتهن ويسترن وجوههن مثلما تفعل الفاسيات (أي نساء مدينة فاس بالمغرب الأقصى) يغطين وجوههن بوضع خمار يدعى السفساري"[121].

وقد عرفت البلاد التونسية ارتداء الأحذية المصنوعة من الجلود (الصناديل والبابوش)[122] التي كثرت في بعض الجهات نتيجة وفرة جلود الماشية[123]، فقد كثرت الجلود بمدينة عنابة، حتى إن السفن التجارية كانت تقصد مرسى هذه المدينة لشراء الجلود وغيرها من السلع[124]. وكان أهل قفصة يرتدون الأحذية المصنوعة من جلد الماعز البري المعروف بالوعل[125].

خامسًا– العادات والتقاليد الاجتماعية:

أوضحت بعض الإشارات التي أوردها كربخال **كثرة الطلاق، وتعدد الزوجات** في بعض جهات البلاد التونسية، من ذلك ما ذكره عن وقوع القتال كثيرًا بين ساكني جبال إقليم قسنطينة بسبب النساء اللاتي كن يتطلقن في جبل؛ ليتزوجن في جبل آخر[126]،

---

[118] ابن ناجي، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، حققه محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، (تونس، 1914) ص228، 292؛ برنشفيك، **مرجع سابق**، ج2، ص292.

[119] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص101.

[120] **المصدر السابق**، ص23.

[121] **وصف أفريقيا**، ج2، ص78.

[122] ناصر الدين سعيدوني، **مرجع سابق**، ص35.

[123] محمد حسن، **مرجع سابق**، ص487.

[124] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص8.

[125] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص84، 145.

[126] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص16.

وقد وردت هذه الرواية عند الحسن الوزان ونقلها عنه كربخال لكنه غَيَّرَ في مضمونها، فالوزان يقدم سببًا مهمًا لتلك الظاهرة لهروب النساء، وهي خلاف الزوجات مع أزواجهن، ولذلك يقول أنهن كن يهربن "إذا لم يرضين بأزواجهن"[127]. وقدمت نوازل أبي القاسم عظوم خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر أدلة قاطعة على كثرة الخلافات الزوجية ورغبة الزوجة في الطلاق من زوجها بسبب تلك الخلافات، أو عدم رضاها بسبب بعض العيوب الظاهرة في زوجها[128]. كما أضاف كربخال تعليقًا وزيادة على رواية الوزان قائلًا "حسبما تسمح بذلك ديانتهن"[129]. والواقع أن هذا التعليق من جانب كربخال يحمل قدرًا كبيرًا من المغالطة والتدليس، فلم يسمح الإسلام بذلك، وإنما مثل تلك الظواهر كانت حوادث فردية، كان السبب فيها الجهل بأحكام الشريعة من جهة، وتساهل بعض المفتين من جهة ثانية، وهذه المسألة كانت موجودة في المجتمع التونسي خلال القرن الخامس عشر، فقد تذمر الفقيه البرزلي (المتوفى عام 1438م) من السهولة التي يتوخاها بعض الفقهاء والمفتين، ولا سيما فقهاء الأرياف الجُهال، بإصدار فتاوى مدفوعة الأجر لإرجاع الزوجة المطلقة ثلاثًا إلى زوجها[130]. أما ضوابط الشرع الإسلامي فهي تحرم تزويج المرأة المطلقة للرجل الذي دفعها لطلب الطلاق من زوجها، لأنه بذلك ارتكب معصية "التخبيب"، أي إفساد المرأة على زوجها[131]. وقد أفتى بذلك كثير من الفقهاء التونسيين[132].

---

[127] **وصف أفريقيا**، ج2، ص103.

[128] أبو القاسم عظوم، **مصدر سابق**، ج1، ص 94، 168– 169، 170– 171، 200، 263، 283؛ ج2، ص21، 58، 66؛ ج3، ص405؛ ج6، ص 308؛ محمد البشير، **مرجع سابق**، ص35.

[129] **أفريقيا**، ج3، ص16.

[130] أبو القاسم البرزلي، **فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تحقيق محمد حبيب الهيلة، ج2 (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2002)، ص507.

[131] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من خبب زوجة امرئٍ أو مملوكه فليس منا". أبو داوود (سليمان بن الأشعث)، **سنن أبي داوود**، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، ج4 (بيروت، المكتبة العصرية، د.ت)، حديث رقم 5170، ص343.

ويفهم من إحدى إشارات كربخال **حرص التونسيين على السلوك القويم ورفضهم لكل مظاهر الانحلال الاجتماعي والأخلاقي**؛ بدليل الإشارة التي أوردها كربخال عن أهالي مدينة تونس بأنهم كانوا يستقبلون أصدقائهم وضيوفهم ويجرون سائر معاملاتهم في بهو منازلهم ويتجنبون إدخال هؤلاء إلى داخل الدار حيث توجد نساؤهم. كما إن أهالي مدينة قسنطينة هموا بقتل عامل المدينة وهو مولاي عبد المؤمن ابن الخليفة الحفصي مولاي محمد بن مولاي الحسن، وسبب ذلك "ما كان عليه من عُهر ورذيلة"، فاضطر والده لعزله[133].

ونستشف من رواية أخرى حرص أهالي قسنطينة على قيم الفضيلة والعفاف، فيشير كربخال إلى وجود بناية قديمة بتلك المدينة نحتت عليها وجوه آدمية لرجال ونساء وأطفال، يعتقد الأهالي أنها كانت مدرسة مسخ أساتذتها وتلاميذها حجارة بسبب ما كانوا عليه من الرذيلة[134]. والذي يهمنا من هذه الرواية ليس البحث في واقعيتها أو زيفها مثلما فعل كربخال، وإنما استخلاص المدلول الاجتماعي لاعتقاد السكان.

واتضح مما أورده الوزان وكربخال **اعتناء التونسيين بنظافتهم الشخصية**، فانتشرت الحمامات في ربوع بعض المدن، ولا سيما في مدينة المرسى بإقليم تونس التي كان بها الحمامات وبعض دور الاستجمام التي كان حكام تونس يخرجون إليها للاستجمام والاستمتاع بهواء الصيف اللطيف[135]، وحمامات مدينة تونس نفسها التي اشتهرت بأنها أكثر راحة من حمامات مدينة فاس بالمغرب الأقصى[136]، فكانت تلك الحمامات محط إعجاب الرحالة الذين زاروها[137].

---

[132] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص77.

[133] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص12، 23.

[134] **المصدر السابق**، ص13.

[135] **وصف أفريقيا**، ج2، ص82؛ أفريقيا، ج3، ص61.

[136] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص23.

[137] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص77.

وقد دللت تلك الحمامات على تحضر المجتمع التونسي، وهو خصوصية حضرية اقتصر وجودها على المدن دون البوادي والقرى الصغيرة، وارتبط عدد الحمامات بأهمية سكان المدينة، فكان لكل حي حمام في مدينة تونس على سبيل المثال[138].

وكانت هنالك حمامات مخصصة للنساء وأخرى للرجال[139]، وكانت حوانيت العطارين تظل مفتوحة إلى ما بعد منتصف الليل؛ لأن النساء كن يذهبن للحمام ليلًا[140]، ومن ثم كن يشترين أغراضهن من تلك الحوانيت.

ويصف كربخال نساء مدينة تونس بأنهن متميزات بالحسن والجمال، ومعتنيات بزينتهن، ولكنهن يبالغن في التخضيب والزينة[141].

سادسًا– الخرافة وأثرها في المجتمع التونسي في ضوء رؤية كربخال:

قدم كربخال رؤية موجزة بخصوص الخرافة وتأثيرها في المجتمع التونسي خلال فترة البحث؛ وإن كانت رؤيته قد اتسمت بالانتقائية، فقد عرض لبعض الخرافات، منها أن مدينة قسنطينة عثر في وسطها بعض الأطلال، وأشار إلى أن جهلة العامة ادَّعوا أن تلك الأطلال من بقايا قصر كانت تسكنه الأرواح الشريرة. وقد جاء انتقاء كربخال لتلك الرواية للرد على تصور الأهالي بأن المسلمين (أو أتباع محمد كما يقول) عندما دخلوا قسنطينة قاموا بطرد هذه الأرواح الشريرة[142]. وأفادت إشارة أخرى بأنه على مسافة قليلة تزيد عن النصف فرسخ من مدينة تبسة بإقليم قسنطينة وجد جبل كثير الكهوف والمغارات، اعتقد العامة أنها مساكن للجن[143]. ومن الملاحظ أن كربخال قد تصيد

---

[138] محمد حسن، **مرجع سابق**، ص 491، 492.

[139] صوفية السحيري، **مؤنث وأمكنة في المجتمع الحفصي 1228– 1574م**، أشغال الملتقى الدولي الثاني حول: المدينة – القبيلة– المجال في العالم العربي الإسلامي، (جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2003) ص321، 322.

[140] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص78؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص21.

[141] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص23.

[142] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص13.

[143] الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص58، 59، 64؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص15.

تلك الروايات البعيدة عن الواقع؛ الوصول لنتيجة مفادها ضعف المستوى الفكري والديني لبعض مسلمي تونس، وإن كان قد وُفق في استعمال مصطلح "جهلة العامة"، وهذا يبين أنه لم يصدر حكمًا عامًا.

وبخلاف ما سبق؛ **قدم كربخال رؤية حول ظاهرة التصوف في مجتمع تونس،** ونشير بداية إلى أن انتشار التصوف في المجتمع التونسي لم يكن وليد القرن السادس عشر، وإنما عرف النصف الثاني من القرن الثالث عشر ازدهار التصوف في ذلك المجتمع بفضل بصمات المتصوف أبي الحسن الشاذلي (1197– 1258م) ولاقى هذا التيار الصوفي الشاذلي قبولًا واسعًا من طرف العامة[144].

وقد عرف تيار التصوف انتشارًا واسعًا وعلا شأن المتصوفة في المجتمع التونسي خلال القرن السادس عشر نتاجًا للتراجع الثقافي والفكري كما هو حال سائر الميادين، فرغم انتصار المذهب المالكي وشيوعه في أوساط المجتمع التونسي حتى القرن الخامس عشر، إلا أنه لم تكن هناك جهود متواصلة للتعمق فيه وتطويره تطويرًا يناسب العرف ومجرى التاريخ، فقد عُد الإمام ابن عرفة المتوفى عام 1401م آخر كبار المجددين في هذا الميدان، وأعلن علماء المغرب عامة غلق باب الاجتهاد خلال القرن الخامس عشر فظلت علوم الدين التي كانت تمثل الثقافة السائدة تعتمد على التقليد والتكرار وأضحت علومًا تقليدية إذ جفت مواردها وتحجرت على غرار ما أصاب سائر ميادين الحياة، وعجزت عن الاستجابة لمتطلبات الجماهير، تزامن مع ذلك ميل العلماء للانطواء داخل فرق منغلقة على نفسها، فبحث الناس عن مرضاة الله في سبل أخرى فوجدوا ضالتهم في الزوايا التي لقيت ازدهارًا مدهشًا نتيجة للعوامل السابقة، فوجد العامة في المتصوفة ملاذهم فهم في منظورهم "شفعاءهم عند الله وحماة ينجدونهم عند الشدة" في عصر اتسم بالقساوة وحفل بالكوارث والأزمات؛ فازداد الناس تقربًا من الأولياء وعظم إقبالهم على الزوايا، وازداد التعلق شيئًا فشيئًا ببركة هؤلاء الأولياء وكراماتهم، وتعلق الناس بالخوارق وكل ما هو عجيب[145].

---

[144] ابن عطاء الله السكندري، **لطائف المنن،** (مطبعة الدولة التونسية، 1989)، ص26.

[145] محمد الهادي الشريف، **مرجع سابق،** ص60، 61.

لكن الحسن الوزان وكربخال اختزلا ظاهرة التصوف في تونس باعتبارها مجرد ضربًا من الخبل والجنون، وأن العامة نسبوا كل معتوه للصلاح، فقد وصف الوزان أهل مدينة عنابة بأنهم على درجة كبيرة من السذاجة؛ لأنهم يعظمون أقوامًا يسيرون في المدينة كالمجانين، ويعتقدون أنهم من الأولياء الصالحين ويحيطونهم بكل احترامٍ وتقدير[146]. وفي نفس الإطار تحدث كربخال عن أهالي مدينة تونس قائلًا "وتبلغ السذاجة بهذه الشعوب إلى حد أنهم ينسبون إلى الصلاح كل معتوهٍ تائهٍ في الأزقة والأسواق، فتراهم لا يكتفون بإكرام هؤلاء المعتوهين، بل يتعدون ذلك إلى الإحسان لذويهم"[147]. وهذا اجتزاء لظاهرة التصوف تلك الظاهرة الدينية والاجتماعية التي عرفها العالم الإسلامي كله مشرقه ومغربه، والتي أسهمت بدور مهم على الصعيد الديني والاجتماعي، بل وحتى السياسي وعرفت ذروتها خلال القرن الرابع عشر للميلاد[148]. وقد كان عالم الاجتماع الفرنسي جاك بيرك Jacques Berque موضوعيًا عندما حلل ظاهرة التصوف في مجتمع المغرب خاصة وشمال أفريقيا عامة، واعتبر أن تلك الظاهرة تدخل في إطار عملية إعادة ترتيب المقدسات الدينية التي أسهمت في حماية تاريخ المجتمع كله من الداخل في مواجهة التقلبات السياسية، وأن التصوف في شمال أفريقيا باعتباره مقدسًا دينيًا قد أعطى التاريخ الحقيقي الكثير من إشاراته[149].

سابعًا– رصد كربخال لحالة الفوضى وعدم الأمن وانعكاسها على المجتمع التونسي:

أفصحت شهادات كربخال عن شيوع تلك الحالة في أوساط المجتمع التونسي، فهو يؤرخ لفترة عصيبة من عمر الدولة الحفصية كما ذكرنا؛ تلك الفترة التي تجرأت فيها بعض القبائل العربية وتكررت هجماتها على المدن التونسية، بل إنها وصلت إلى

---

[146] **وصف أفريقيا**، ج2، ص61، 62.

[147] **أفريقيا**، ج3، ص23.

[148] انظر تقديم د. هشام جعيط لكتاب: **الولاية والمجتمع** لنللي العامري، ص7.

[149] Berque, Jacques, **Ulémas, fondateurs, insurgés du Maghreb XVIIe siècle,** (Paris, 1967), pp. 541, 542; Amri, Nelly, Walī et awliyā' dans l'Ifrīqīya "médiévale", **Studia Islamica**, No. 90 (2000), p.24.

أسوار مدينة تونس نفسها[150]، وباستثناء جزيرة جربة التي أفلتت من سيطرة كل من الحفصيين، وقبائل البدو من العرب؛ نتيجة صعوبة الوصول إليها؛ فإن مدن الساحل الشرقي تمتعت باستقلالها الذاتي شريطة دفع الرسوم للحفصيين وللقبائل العربية أيضًا؛ اتقاء هجماتهم وما كان يتبعها من تدمير[151].

وجدير بالذكر أن المصادر أجمعت على مسألة غياب الأمن وطغيان الأعراب وعيثهم فسادًا خلال فترات كثيرة من العهد الحفصي، وأن سكان المدن التونسية عانوا أشد المعاناة جراء غارات هؤلاء الأعراب خاصة خلال الفترة من القرن 13–16م، وهذا من واقع شهادات الرحالة المسلمين الذين زاروا تونس خلال الفترة المذكورة[152].

ويؤكد ذلك الأمر أيضًا ما ذكره كربخال بأن العرب عندما دخلوا البلاد التونسية تعرضت معظم المدن والقرى للتدمير، ولم يكلفوا أنفسهم عناء إعادة تعميرها؛ لأنهم عاشوا متنقلين على الدوام بقطعان ماشيتهم. كما أكد كربخال تخريب الأعراب لمدينة قرطاجة حتى لم يبق منها سوى قرية صغيرة تسمى المرسى[153].

إن ضعف السلطنة الحفصية واعتمادها على مرتزقة أجانب كان دافعه الوضع الاقتصادي والأزمات التي عانت منها البلاد وقتئذ، فقد بقيت القبائل الرحل أو شبه الرحل من البدو من قبائل العرب والبربر صاحبة الأمر والنهي في المناطق الداخلية، وتسبب ذلك في تفتت المجتمع وانقسامه إلى مجموعات، تمثلت في القبائل المستقلة

---

(150) آسيا غزيل، منال مسعودة، **مرجع سابق**، ص26.

(151) Mercier, Ernest, **Histoire de l'Afrique septentrionale**, (Paris: Ernest le Lerroux éditeur, 1891), T.3, p.6.

(152) انظر أبو عبد الله التجاني، **رحلة التجاني**، (تونس، الدار العربية للكتاب، 1981) ص15، 16، 56؛ محمد العبدري البلنسي، **الرحلة المغربية**، (الجزائر، منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2007) ص33، 34، 76؛ أبو القاسم عظوم، **مصدر سابق**، ج7، ص95؛ أبو عبد الله الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، حققه محمد ماضور، (بيروت، المكتبة العريقة، د.ت) ص133، 134، 136، 137.

(153) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص16، 19.

مثل الهواريين –ذوي الأصل البربري– في شمال البلاد التونسية، والكعوب في الوسط، وأولاد دباب في الجنوب، وبني علي الذين كانوا يطوقون الساحل ويقيمون على مقربة منه، وكانت تلك القبائل تملك موارد عيشها من ماشية وأراض، كما كانوا يمتلكون الأسلحة؛ لذلك لم يكونوا بحاجة ماسة للخضوع لسلطة مركزية تمارسها المدن الكبرى أو تفرضها الدولة عليهم؛ لأنهم كانوا سيدفعون ثمن ذلك باهظًا. وفي المقابل تنازل الحفصيون مضطرين أحيانا عن امتيازات مهمة مثل إقطاع الأراضي أو التنازل عن بعض الملكيات لصالح تلك القبائل، ولذلك لم يبالغ كربخال حينما قال بأن ملوك تونس حرصوا على خطب ود تلك القبائل بالتنازل لها عن جزء من إيراداتهم[154]، بل إنهم قبلوا سيطرتها على مناطق بعيدة شاسعة؛ فعلى سبيل المثل امتد نفوذ قادة الكعوب من أولاد بالليل على منطقة قابس بل إنهم بسطوا نفوذهم لبعض الوقت على مدينة صفاقس[155]، كما استغلت قبيلة الشابيين التناحر بين الحفصيين والإسبان والأتراك، واستولت على مدينة القيروان سنة 1537م، لكنهم لم يصمدوا طويلا حيث قضى الأتراك على نفوذهم نهائيًا في عام 1557م[156]. ويلاحظ أن الحفصيين غضوا الطرف عن سيطرة تلك القبائل على المناطق الداخلية، بينما حرصوا كل الحرص على المدن المهمة ولا سيما تلك المتصلة بالبحر، والتي كانت تبدو مراكز نشاط وحركة. وكان للأعراب نفوذ سياسي واقتصادي واضح؛ إذ كانوا باسطين نفوذهم على جل البلاد الداخلية، وفي ظل ذلك الوضع لم تكن دائرة النفوذ الفعلي للحفصيين تتجاوز حواضر تونس وأعمالها وبجاية وقسنطينة وبعض المدن الساحلية. أما الهضاب الداخلية ومدن الجنوب وواحاته فكانت خاضعة لنفوذ القبائل العربية لا سيما من بني هلال وبني سُليم[157]، تلك القبائل التي غزت البلاد التونسية في القرن الثالث عشر الميلادي،

---

(154) **المصدر السابق**، ص5؛ محمد الهادي الشريف، **مرجع سابق**، ص 57.

(155) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص 96؛ محمد الهادي الشريف، **مرجع سابق**، ص 58.

(156) محمد الهادي الشريف، **مرجع سابق**، ص65.

(157) أبو عبد الله الزركشي، **مصدر سابق**، ص82؛ نللي العامري، **مرجع سابق**، ص60؛ إبراهيم جدلة، **المجموعات القبلية البدوية وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والسياسية بإفريقية أثناء**

وأضروا بساكنيها من البربر عندما زاحموهم؛ فاضطروا لهجر مدنهم والتجائهم إلى المرتفعات[158].

يتضح مما سبق أنه كان هناك تباين واضح بين جهات محظوظة نسبيًا (الحواضر وتوابعها والمناطق التي تمثل حصونًا منيعة أو طرقًا لابد من عبورها)، وبين المناطق الداخلية التي كتب عليها أن تظل مجرد مراعٍ ممتدة لقطعان القبائل العربية أو المستعربة، وميدانًا لكل مظاهر الضعف والركود الاقتصادي[159].

وفي ظل هذا الوضع انهارت السلطة الحاكمة، وفقد الأمن، وغاب الرادع ضد القوى المحلية التي أعلنت انفصالها؛ مما أغرى الإسبان، ومن ثم العثمانيين بالتدخل والسيطرة على تونس، وغيرها من السواحل المغاربية[160].

ورغم ما ذكره كربخال بخصوص الذعر الذي نشره الأعراب في المجتمع التونسي فإنه لم يشر إلى ما تسببت فيه غارات الممالك الفرنسية والإيطالية من خراب على السواحل والموانئ التونسية في إطار الحملات الصليبية التي انطلقت نحو تلك السواحل منذ القرن الحادي عشر للميلاد، واستمرت خلال الفترة من القرن الثاني عشر حتى القرن السادس عشر[161]، وفي إطار الأطماع التوسعية الأوروبية في الحوض الجنوبي للبحر المتوسط؛ فانتشر الرعب بين الأهالي خشية الوقوع في أسر النصارى[162].

العهد الحفصي، أشغال الملتقى الدولي الثاني حول: المدينة – القبيلة– المجال في العالم العربي الإسلامي، (جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2003)، ص156، 157.

[158] ابن خلدون، **مصدر سابق**، ج6، ص23– 25؛ إبراهيم جدلة، **المجموعات القبلية البدوية وتأثيرها**، ص155؛ جميلة مبطي المسعودي، **مرجع سابق**، ص137.

[159] محمد الهادي الشريف، **مرجع سابق**، ص58، 59.

[160] آسيا غزيل، منال مسعودة، **مرجع سابق**، ص27.

[161] حول هذه الحملات والهجمات انظر أبو العباس القسنطيني: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد النيفر وعبد المجيد التركي، (الدار التونسية للنشر، 1968) ص131؛ نللي العامري، **مرجع سابق**، ص48.

[162] أبو عبد الله محمد بن الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق محمد بن الطاهر المعموري، (الدار العربية للكتاب، 1984) ص69، 111، 116؛ نللي العامري، **مرجع سابق**، ص67.

أضف إلى ذلك فإنه بالرغم من الصورة السلبية التي أظهرها الأعراب في تاريخ تونس، حتى إن بعض فقهاء تونس حذروا السكان البربر من التعامل معهم ووصفوهم بالمفسدين؛ فإن تاريخ الأعراب في تونس لم يكن سلبيًا بالكلية، فقد وجدت علاقات حسنة بين بعض العرب والبربر، بل إن بعض سلاطين الحفصيين صاهروا بعض القبائل العربية[163]. كما إن بعض القبائل البربرية اندمجت مع العرب وقلدتهم في طرائق عيشهم وامتزجوا بهم مثل قبائل ولهاصة وسدويكش والشاوية الذين اندمجوا مع العرب وتزوجوا منهم حتى أصبح من الصعب التمييز بينهم وبين العرب. وكان للعرب دور إيجابي آخر على صعيد الحياة الثقافية بما أحدثوه من تعريب ونشر لثقافتهم، وكانت لهم إسهامات أخرى في بعض الجوانب الاقتصادية والإدارية[164].

ثامنًا- محن التونسيين ومشاكلهم في ضوء رؤية كربخال:

يأتي في مقدمة تلك المحن وأشدها وطأة على المجتمع التونسي، محن الحروب والحصار العسكري، من ذلك ما ذكره كربخال بأنه حينما غزا الإسبان بقيادة الكونت بيدرو نافارو Pedro Navarro إقليم طرابلس عام 1509م وقرر سكان الإقليم مواجهته وجنده من النصارى؛ واستبسل السكان في مواجهتهم سقط كثير من القتلى والجرحى، واضطر بعض المسلمين للاعتصام بالمساجد، فاقتحمها النصارى وقتلوا أكثر من ألفين مسلم، وفتكوا بأكثر من ستة آلاف مسلم في مجموع المعارك التي دارت بين الطرفين، وألقيت بعض جثثهم في البحر والبعض الآخر في آبار المساجد، وتم إحراق الكثير من الجثث. وأسروا أكثر من خمس عشرة ألف مسلم[165].

---

(163) الشماع، **مصدر سابق**، ص138، 112؛ جميلة مبطي المسعودي، **مرجع سابق**، ص139.

(164) الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج1، ص66؛ برنشفيك، **مرجع سابق**، ج1، ص166؛ جميلة مبطي المسعودي: **مرجع سابق**، ص140.

(165) الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج1، ص31؛ كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص119- 123؛ أسماء أبلالي: التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 10هـ/ 16م "قراءة في الدوافع والنتائج"، **مجلة روافد للبحوث والدراسات**، جامعة غرداية، الجزائر، (2017)، ص24.

ومن ذلك أيضًا ما يستشف من الإشارات التي أوردها كربخال بأن أحوال تونس عامة قد تأثرت نتيجة الغزو الإسباني عام 1535 فهذا الغزو أتى على الأخضر واليابس، وكان من نتائجه، القضاء على كثير من معالم المدينة الحضارية بتقويض القصور وهدم المنازل، وقلع الأشجار، وحمل الذخائر والكنوز الفنية مثل بعض سواري جامع الزيتونة إلى إسبانيا، وحرق المخطوطات المحفوظة بجامع الزيتونة وإتلافها، فتلك الغزوة اصطبغت بروح عنصرية حملت الكره والعداء للإسلام والمسلمين، والرغبة في تنصير أهل البلاد[166]. كما تأثر عمران المدينة وأحوالها الثقافية وتبدل أمنها الاجتماعي، بعد أن كانت مزدهرة فترة رخاء وقوة العصر الحفصي[167].

أورد كربخال إشارة أوضحت مدى معاناة السكان جراء الغزو الإسباني لتونس، من ذلك قوله عن سكان مدينة قرطاجة أنهم تركوا منازلهم وبساتينهم وقصورهم وجنانهم وبساتينهم عندما غزاهم الإمبراطور شارلكان، وأن ذلك الغزو أصابهم بكثير من عدم الطمأنينة لا سيما حينما كانت تنشب الحرب بين إقليم تونس وحصن حلق الوادي بسبب وصول غارات الإسبان لتلك الجهة، كما كان الإسبان ينهبون ما يلزمهم لاستكمال تحصيناتهم، وقاموا بقطع جميع أشجار الزيتون وغيرها من الأشجار المثمرة في المنطقة الواقعة بين قرطاجة وتونس؛ مما تسبب في إحداث الهلع والذعر بين السكان الذين اضطروا للهجرة إلى مدينتي تونس وبنزرت[168].

كما أشار كربخال إشارة أخرى تفيد بقيام شارلكان بعد غزوه لتونس بإرسال قائده المدعو أندريا دوريا على رأس جيش قوامه ثلاثون سفينة حربية وألفان من المقاتلين بغرض احتلال مدينة عنابة، وما إن وصل هذا الجيش لتلك المدينة وجدها مهجورة خالية من السكان الذين هجروها مع بربروسا؛ بعضهم عن طريق البحر والبعض الآخر عن طريق البر[169]، وهذا يبين حالة الذعر وعدم الأمان التي أحدثتها الغزوة الإسبانية.

---

[166] أحمد الطويلي، **مرجع سابق**، ص19، 20.

[167] **المرجع السابق**، ص20، 21.

[168] مارمول كربخال، **أفريقيا**، ج3، ص19.

[169] **المصدر السابق**، ص9.

وتشير المصادر المعاصرة لأحداث الغزو أنه تسبب في خلو مدينة تونس من سكانها، ويفهم من ذلك هجرة سكان تونس لمدينتهم نتيجة هذا الغزو[170]. وبعد غزو المدينة استقرت بها حامية إسبانية، وعين عليها حاكم إسباني يدعى ألبار جوميز، وقد عاث أتباعه في المدينة فسادًا إذ كانوا يغيرون على ما تبقى من سكانها من العرب والبربر وينهبون مواشيهم ويأسرون من شاءوا منهم[171].

وعندما غزا شارلكان مدينة تونس شوهدت أطلال بنايات شامخة عظيمة وقصور من المرمر تحولت إلى خراب؛ كما إن السكان عند وقوع ذلك الغزو هجروا جنانهم وبساتينهم[172]. وأقرَّ كربخال بالخراب الذي حل بمدينة إفريقية نتيجة الغزو الإسباني فيقول عنها "مدينة كبيرة دمرها في عصرنا هذا شارلكانت"[173]. وعندما وصل جنود شارلكان مدينة المرسى بإقليم تونس وجدوها خاوية من سكانها فنهبوا ما فيها. كما فر سكان مدينة أريان بالإقليم نفسه أمام ذلك الغزو وكانوا من الفلاحين والبستانيين الفقراء، وتم نهب مدينتهم. أيضًا عندما وصلت أنباء توجه قوات الحملة الإسبانية نحو مدينة تونس انسحب معظم السكان والتحقوا بالجبال والجهات المجاورة حاملين معهم ما استطاعوا من أمتعتهم. أيضًا فر سكان مدينة قمارت بإقليم تونس عندما وصل جيش شارلكان على أطراف مدينتهم. كما إن مدينة عراض بإقليم تونس هجرها سكانها نتيجة ذلك الغزو، وكذلك فعل سكان مدينة نبلة بنفس الإقليم. وتعرض سكان مدينة القليبية بإقليم تونس لنهب الإسبان ثلاث مرات نتيجة موالاة سكان هذه المدينة للأتراك[174].

---

(170) ابن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، حققته لجنة من وزارة الشئون الثقافية، (تونس، الدار العربية للكتاب، 1966)، ج2، ص13؛ أبو عبد الله محمد السراج، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، (تونس، مطبعة الدولة التونسية،1287هـ) ج1، مجلد3، ص1095.

(171) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص9.

(172) **المصدر السابق**، ص19.

(173) **المصدر السابق**، ص70.

(174) **المصدر السابق**، ص51، 61، 62، 63.

ولما وصل شارلكان وجنوده أحد أبواب مدينة تونس وهو "باب درب الحضرة" وعد قادته بأن يبيح لهم نهب المدينة. وعندما تيقن الجند النصارى من سقوط حصن حلق الوادي تسلقوا أسوار مدينة تونس وفتحوا الأبواب لرفاقهم. وصور لنا كربخال المأساة التي حلت بالمدينة وأهلها بقوله "فوقع اقتحام المدينة وارتُكب في نهبها ما هو معهود في مثل هذه الصدمات من القساوة والانتهاك". ورغم توسل الأمير الحفصي للإمبراطور شارلكان بالكف عن هذا العبث والفساد وعدم أسر سكان المدينة؛ إلا أن الجند النصارى أخذوا يقتلون كل من يجدونه من السكان، بل إن أولئك الجند تقاتلوا على تقسيم الغنائم ومات عدد منهم أثناء النزاع حولها[175].

وفي الجهة الأخرى من المدينة كان الحرس الإسبان ومعهم بعض الفرسان يعيثون فسادًا، فيقتلون وينهبون كل ما وصلوا إليه. وصور كربخال تلك المأساة بقوله: "فكنت ترى هنا وهناك أكوامًا ضخمة من جثث النساء والأطفال وقد اختنقوا أو ماتوا بالعطش"[176]. وهذا يبين حجم المأساة وأن النساء والأطفال لم يسلموا من إيذاء الغاصبين واعتداءاتهم، وأن الإسبان قتلوا التونسيين وأسروهم دون تمييز في الجنس أو العمر[177].

وبعد أن استبيحت المدينة للنهب ثلاثة أيام أخذ الجنود النصارى ينهبون ويقتلون ويرتكبون كل أنواع المحرمات، كما إنهم هدموا المساجد وحرقوا أغلب الكتب النفيسة ومزقوها[178]، كما أخذوا يهدمون الدور بحثًا عن الثروات والكنوز التي تركها الأهالي[179]. والغريب أن استباحة تونس لمدة ثلاثة أيام للنهب كان أحد بنود معاهدة

---

[175] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص53، 54.

[176] **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، ص54.

[177] الشافعي درويش، الحملة الإسبانية على تونس في سنة 1535م، **مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية**، (سبتمبر 2017)، ص8.

[178] خير الدين بربروس، **مذكرات خير الدين بربروس**، (الجزائر، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، 2010)، ص178؛ محمد فريد بك: **مرجع سابق**، ص233؛ الشافعي درويش، **الحملة الإسبانية على تونس في سنة 1535م**، ص8.

[179] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص54.

الخزي والعار التي وقعها السلطان الحفصي أبو عبد الله مع الإمبراطور شارلكان[180]، ونتج عن ذلك البند المخزي أن سُمح لأفراد الجيش الإسباني بنهب الأهالي وتقتيلهم مدة ثلاثة أيام متتالية فذبح أكثر من ثلث السكان، وشُرد ثلث آخر. من ثم كان قبول السلطان الحفصي لتلك الشروط المهينة سببًا في ثورة السكان عليه؛ فأمسكوا به، وسملوا عينيه، وخلفه ابنه أحمد أبو العباس الثاني[181].

وأحصى كربخال بناء على تقدير الأمير الحفصي عدد من ماتوا من سكان تونس في خضم أحداث ذلك الغزو وهم يفرون خلال الأجنة والبساتين، وقد قدر عددهم بما يزيد على السبعين ألف شخص[182] من كل الأجناس والأعمار[183]، هذا بخلاف من قتلهم النصارى. وبلغ عدد من وقعوا في الأسر من الرجال والنساء والأطفال ما يزيد على الأربعين ألفًا[184].

وبخلاف محن الحروب والحصار العسكري، برهن كربخال على ما عانى منه التونسيون من **مشاكل الضرائب الباهظة** التي فرضها الحفصيون في عهد حكامها الأواخر على السكان، من ذلك على سبيل المثال، ما فرضه مولاي الحسن الحفصي على أهالي القيروان من ضرائب أثقلت كاهلهم، وأصابتهم بحالة من التذمر والسخط؛ جعلتهم يرحبون بالحامية العثمانية التي حلت بالمدينة على إثر استيلاء خير الدين

---

(180) ابن أبي الضياف، **مصدر سابق**، ج2، ص14.

(181) ابن أبي الضياف، **مصدر سابق**، ج2، ص14؛ شوقي عطا الله الجمل، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)**، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1977) ص87؛ أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492– 1792**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ت)، ص233، 234؛ محمد العربي الزبيري، **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1985) ص27.

(182) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص54.

(183) Rousseau, Alphonse, **Op.cit**, p.20.

(184) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص54.

بربروسا على مدينة تونس[185]. ومن ذلك أيضًا ما ذكره كربخال أنه بعد حصار قلج أو (قولج) بن علي عامل الجزائر لمدينة قسنطينة في عام 1568م، قام باقتحامها عنوة ونهب ما بأيدي سكانها، وأجبر أثرياء المدينة على تحصين القلعة بأموالهم الخاصة، فضلًا عن الضرائب الباهظة التي أثقل كاهلهم بها إذ فرض عليهم أن يؤدوا له خمسين أو ستين ألف ريال[186]. كما أثقل حكام تونس كاهل سكان مدينة باجة بالضرائب إلى حد تغير طباع سكانها ولجوءهم للغصب واللصوصية، فوصفهم الوزان بأنهم "بدأوا يفقدون تربيتهم الحميدة"[187]، وكذلك حال أهل مدينة قرطاجة الذين أصبحوا في حالة شديدة من الفقر؛ نتيجة ما فرض عليهم من ضرائب، وأيضًا مدينة الحمامات التي أثقلت بالضرائب حتى كاد أهلها يسألون الناس[188]. كما حدثنا كربخال عن مدينة زوارة بإقليم طرابلس وأنها تحت حكم الأتراك الذين أثقلوا كاهل سكانها بالضرائب حتى أصبحوا بؤساء[189].

وقد ظهر من خلال وصف كربخال حالة التردي التي أصبحت عليها الدولة الحفصية خلال القرن السادس عشر، فبعد أن كانت السلطة الحفصية خلال فترات ازدهارها السابقة تعمل على تعيين القضاة، والمحتسبين وكانت تحرص على النظر في الشكاوى ورد المظالم؛ للتخفيف من تعسف بعض الإداريين، أصبحت السلطة نفسها هي من تتعسف وتظلم الرعية بشكلٍ مباشر[190]. وقد أفصحت نوازل آخر القرن الخامس عشر للهجرة عن تلك المشكلة حينما أصبح هناك تنافس بين السلطتين

---

(185) **المصدر السابق**، ص98؛ عزيز سامح إلتر، **مرجع سابق**، ص112.

(186) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص12؛ جون. ب. وولف، **مرجع سابق**، ص85؛ محمد العروسي المطوي، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي** (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986)، ص ص718.

(187) الحسن الوزان، **مصدر سابق**، ج2، ص66.

(188) **المصدر السابق**، ص70، 83.

(189) كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص119.

(190) برنشفيك، **مرجع سابق**، ج2، ص145، 146.

السياسية والقضائية وأصبح السلطان الحفصي يتدخل في عمل القاضي ويرد بعض أحكامه[191]. وقد جاء في أحد مصادر نفس الفترة إشارة أفادت بتدخل أحد السلاطين الحفصيين، وتخفيفه الحكم على أحد الأشراف من الإعدام إلى السجن فقط[192].

وبعد عرض تلك الإشارات التي بينت مدى معاناة التونسيين من جراء الحروب والحصار لا سيما الغزوتين الإسبانيتين للبلاد التونسية عامي 1510، 1535، فالواضح من سياق تلك الإشارات أنها أفصحت عن تشفي كربخال في مسلمي تونس ومبالغته في تقدير انتصارات نصارى إسبانيا، فهو بطبيعة الحال لا يتأسف على الواقع المؤسف الذي تعرضت له المدن التونسية جراء الغزوتين الإسبانيتين وإنما غلب على كتاباته الروح الملحمية الأسطورية التي تحيد عن الواقع وتبالغ في وصف انتصارات النصارى، والتي جعلت الهزيمة هي مصير المسلمين على الدوام، كما إن ما فقده المسلمون من قتلى وأسرى وجرحى قدره كربخال بالآلاف وعشرات الآلاف في مبالغة واضحة تكشف عن حالة من الحقد والغل والكراهية للمسلمين[193].

يتأكد مما سبق **عنصرية كربخال وتعصبه الديني في كتاباته عن المجتمع التونسي**، ودليل ذلك أنه استخدم كلمة (أتباع محمد) أكثر من مرة في إشارته للمسلمين الذين استوطنوا المدن التونسية وأقاموا بها بعض المنشآت، منها حديثه عن بعض مدن إقليم قسنطينة مثل مدينة عنابة[194]، وكذلك عند حديثه عن الأطلال الموجودة في

---

[191] بلكيف عبد المنعم، القضايا النوازلية في كتاب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" للإمام المغيلي ودورها في كتابة التاريخ الاجتماعي، **مجلة الحكمة للدراسات التاريخية**، المجلد11، العدد4، (2023)، ص19.

[192] أحمد بن عروس: **مناقب سيدي ابن عروس**، (مطبعة الدولة التونسية، 1885م) ص500.

[193] انظر تقديم المترجمين لكتاب أفريقيا لكربخال، ج3، ص4.

[194] كربخال: **مصدر سابق**، ج3، ص7.

انظر أيضًا حديث كربخال عند فتح العرب لإفريقية وحملة عقبة بن نافع، ج3، ص20. وحديثه عن دخول عقبة وجيشه لمدن زوارة ولبدة بإقليم طرابلس وكيف أنهما تحولتا إلى خراب!!!. **أفريقيا**، ج3، ص119، 120.

وسط مدينة قسنطينة. وأيضًا عند حديثه عن مدينة تيفش حيث أشار إلى أن "أتباع محمد" عند فتح إفريقية ظلت مدينة تيفش متعلقة بالرومان، ثم زيف كربخال الواقع ونطق حقدًا وتعصبًا وكراهية حينما زعم بأن العرب أخذوا تيفش عنوة ونهبوا أهلها ودمروا عمرانها[195]. وهذه الرواية نقلها كربخال عن الوزان، لكن الوزان لم يصف هؤلاء المخربين بأنهم "أتباع محمد" كما فعل كربخال، وإنما قال الأعراب، وهو بذلك يقصد زحف قبائل بني هلال على المدن التونسية[196].

وزعم كربخال أيضًا أن "خلفاء محمد" قاموا مرات عديدة بنهب مدينة تبسة. وفي إقليم تونس زعم تخريب المسلمين لبعض المدن، من ذلك زعمه بأنهم هدموا مدينة أوتيقا، ولم تعمر بعد ذلك[197]، وأنهم هدموا مدينة قرطاج، وأنهم عند فتحهم لإفريقية نهبوا مدينة عراض ودمروا جانبًا من أسوارها، كما إنه زعم أن جيوش الفتح العربي عندما دخلت مدينة صفاقس أصابها الإفلاس والدمار[198]. وهكذا نسب كربخال للإسلام والمسلمين الخراب الذي حل بتونس نتيجة غزو قبائل بني هلال وبني سليم، بل إنه خلط بين أحداث الفتح العربي لإفريقية على يدي الصحابي الجليل عقبة بن نافع، وبين اقتحام تلك القبائل لإفريقية. والفارق بين الوزان وكربخال أن الأول حدد السياق التاريخي والزمني للأحداث ونسب الحدث لصاحبه بكثير من التدقيق، أما الثاني فكتب دون تحديد زمني، وأصدر أحكامًا عامة؛ هدف من ورائها تشويه صورة العرب والمسلمين، كما إنه اجتزئ الأحداث من سياقها لتخدم غرضه.

وقد ناقض كربخال نفسه حينما أقر بأن العرب الفاتحين حينما دخلوا قرطاجة ارتحلوا منها إلى مدينة تونس وأقاموا بها عدة أيام، وشيدوا هناك عددًا من المباني وزينوها بالعمران، ثم ما لبثوا أن غادروها إلى مكان يبعد عنها بنحو ثلاثين فرسخًا جهة الشرق

---

[195] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص12، 14.

[196] **وصف أفريقيا**، ج2، ص63.

[197] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص15، 17.

[198] **المصدر السابق**، ص61، 62، 94.

حيث بنوا القيروان وبنوا هنالك قلعة ومسجد وبرج عالٍ رائق البناء، وأسسوا أيضًا ربضين كبيرين بها، وأقر كربخال بأن القيروان أجمل المدن التي بناها المسلمون بإفريقية[199].

كما ظهرت عنصرية كربخال وتعصبه عند حديثه عن تعليم الشريعة والفقه الإسلامي في المدن التونسية، فاستخدم مصطلح (شرع محمد) عند حديثه عن تعلم الشريعة الإسلامية بإحدى مدارس مدينة عنابة بإقليم قسنطينة[200].

- **خاتمة:**

يظهر مما سبق أهمية دراسة مجتمعات شمال أفريقيا خلال الحقبة التي سبقت الاستعمار الأوروبي لتلك المنطقة من خلال المصادر الأوروبية التي قدمت رؤية لتلك المجتمعات غلب عليها الطابع الاستعلائي والعنصري، كما إن كثيرًا من تلك المصادر، –ومنها كتاب أفريقيا لكربخال– يكشف عن التعصب المسيحي ضد المسلمين وتاريخهم عامة، ومسلمي شمال أفريقيا على وجه الخصوص.

قدم كربخال في كتابه "أفريقيا" تقريرًا استخباراتيًا متكاملًا للقوى الاستعمارية أوضح من خلاله مظاهر القوة والضعف في المجتمع التونسي، والمتمثلة في رصده للمدن والسكان وتعدادهم وعاداتهم وحرفهم ومحاصيلهم الأساسية، علاوة على الخرافات المنتشرة في المجتمع؛ مما أتاح للقوى الاستعمارية التعرف على ذلك المجتمع عن قرب.

كشفت رواية كربخال عن تعدد القوى السياسية المتنافسة والمتمثلة في الحفصيين والإسبان والأتراك والأعراب، وقد أثر ذلك في مناحي الحياة كافة، ولا سيما الأحوال الاجتماعية نتيجة حالة عدم الاستقرار التي عاشها المجتمع التونسي خلال فترة البحث.

في ضوء ذلك تبين أهمية دراسة مجتمع تونس خلال القرن السادس عشر من خلال رؤية الرحالة الإسباني مارمول كربخال، بالرغم أن رواية كربخال عن المجتمع التونسي

---

[199] كربخال، **مصدر سابق**، ج3، ص20، 97.

[200] **المصدر السابق**، ص8.

حملت كثيرًا من التحامل والانتقادات إلا أنها أفادت في توفير معلومات تاريخية مهمة، يمكن مضاهاتها بما كتب عن ذلك المجتمع خلال تلك الفترة.

كشف كتاب أفريقيا لكربخال عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمع التونسي من مساكن، وأطعمة ومشروبات، وملابس، وكذلك أهميته في رصد بعض العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة، وبعض التصورات الشعبية مثل الخرافة وغيرها، التي دارت في أذهان العوام والبسطاء الذين لا تتطرق إليهم الكتابات التاريخية التقليدية التي تركز اهتمامها على التاريخ السياسي ووقائعه وأحداثه.

أفصحت الدراسة كذلك عن أبرز المحن والمشاكل التي عانى منها المجتمع التونسي خلال الفترة محل البحث، وإن كانت إشارات كربخال تحمل في طياتها مزيجًا من الرغبة في الاستعلاء والتفاخر بالانتصارات النصرانية، والحط من شأن المسلمين بالمبالغة في تقدير حجم خسائرهم، وتبيان ضعفهم في مواجهة الجند النصارى.

حاد كربخال عن الموضوعية في كثير من المواقف وظهر ذلك في وصفه لأهل تونس، فقد تعمد وصم أهل تونس بالصفات السلبية فقط دون غيرها، مخالفًا الواقع الذي رصده غيره من الرحالة والمؤرخين. وربما كان غرضه من ذلك رفع الروح المعنوية للقوى الاستعمارية ولا سيما الإسبان وتشجيعهم على غزو تونس.

وختامًا يمكن القول بضرورة أخذ الحيطة والحذر عند التعامل مع مثل هذه المصادر نتيجة لبعدها عن الحيادية والموضوعية في الغالب، فما كتبه كربخال عن أحوال مجتمع تونس أو عن المجتمعات الإسلامية عامة لا يمكن الأخذ به كحقيقة مقطوع بصحتها، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار شخصية هذا الرحالة والمؤرخ الإسباني المتعصب للمسيحية والراغب في الانتقام من المسلمين الذين احتلوا الأندلس (إسبانيا)، بالإضافة إلى طبيعة قدومه لبلاد الشمال الأفريقي وخاصة تونس في مهمة استخباراتية كنسية.

- **قائمة المصادر والمراجع**

أولًا– المصادر العربية والمعربة:

- أحمد بن عروس: **مناقب سيدي ابن عروس**، (مطبعة الدولة التونسية، 1885م).
- الحسن الوزان: **وصف أفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983).
- ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1959).
- خير الدين بربروس، **مذكرات خير الدين بربروس**، (الجزائر، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، 2010).
- أبو داوود (سليمان بن الأشعث)، **سنن أبي داوود**، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت، المكتبة العصرية، د.ت).
- ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، تحقيق محمد الشمام، (تونس، المكتبة العتيقة، د.ت).
- ابن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، حققته لجنة من وزارة الشئون الثقافية، (تونس، الدار العربية للكتاب، 1966) .
- أبو العباس القسنطيني: **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد النيفر وعبد المجيد التركي، (الدار التونسية للنشر، 1968).
- أبو عبد الله التجاني، **رحلة التجاني**، (تونس، الدار العربية للكتاب، 1981).
- أبو عبد الله الزركشي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، حققه محمد ماضور، (بيروت، المكتبة العريقة، د.ت).
- أبو عبد الله محمد السراج، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، (تونس، مطبعة الدولة التونسية،1287هـ).
- أبو عبد الله محمد بن الشماع، **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق محمد بن الطاهر المعموري، (الدار العربية للكتاب، 1984).
- ابن عطاء الله السكندري، **لطائف المنن**، (مطبعة الدولة التونسية، 1989).
- أبو القاسم البرزلي، **فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تحقيق محمد حبيب الهيلة، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2002).

- أبو القاسم عظوم المرادي، **كتاب الأجوبة**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، (تونس، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، 2004).
- مارمول كربخال، **أفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، (الرباط: مطابع المعارف الجديدة، 1984).
- محمد العبدري البلنسي، **الرحلة المغربية**، (الجزائر، منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2007).
- محمود مقديش، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق على الزواري ومحمد محفوظ، مجلد2 (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988).
- ابن ناجي، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، حققه محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، (تونس، 1914).

ثانيًا- المراجع العربية والمعربة:

- إبراهيم جدلة، **المجموعات القبلية البدوية وتأثيرها على الحياة الاجتماعية والسياسية بإفريقية أثناء العهد الحفصي**، أشغال الملتقى الدولي الثاني حول: المدينة – القبيلة- المجال في العالم العربي الإسلامي، (جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2003).
- إبراهيم جدلة، **مجتمع المدينة ودولة السلطان بإفريقية في العهد الحفصي (1227-1574)**، (تونس: الدار المتوسطية للنشر، 2020).
- أحمد توفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر 1850- 1912**، (الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1983).
- أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ت).
- أحمد الطويلي، **في الحضارة العربية التونسية**، (تونس، 1988).
- إدوارد سعيد، **تعقيبات على الاستشراق**، ترجمة صبحي حديدي، (بيروت، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، 1996).
- آسيا غزيل، عمار عمورة، **الموجز في تاريخ الجزائر**، (الجزائر، دار ريحانة، 2002).
- جون. ب. وولف، **الجزائر وأوروبا، 1500- 1830**، ترجمه أبو القاسم سعد الله، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986).

- حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ط3، (تونس، دار الكتب العربية الشرقية، د.ت).
- رأفت الشيخ، **تاريخ آسيا الحديث والمعاصر**، (القاهرة، دار عين للدراسات والبحوث، 2004).
- رضا بن رجب، **يهود البلاط ويهود المال في تونس العثمانية (1685– 1857م)**، (بيروت: دار المدار الإسلامي، 2010).
- روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15**، ترجمة حمادي الساحلي، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988).
- شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق: **تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر** (القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 2000).
- شوقي عطا الله الجمل، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)**، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1977).
- صوفية السحيري، **مؤنث وأمكنة في المجتمع الحفصي 1228– 1574م**، أشغال الملتقى الدولي الثاني حول: المدينة – القبيلة– المجال في العالم العربي الإسلامي، (جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2003).
- عبد الكريم غلاب، **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية: العهد التركي في تونس والجزائر**، ط2، (لبنان: دار الغرب الإسلامي، 2005).
- عزيز سامح إلتر، **الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية**، ترجمة محمود علي عامر، (القاهرة، دار النهضة العربية، 1989).
- محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، (تونس، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1999).
- محمد العربي الزبيري، **مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1985).
- محمد العروسي المطوي، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي** (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986).

- محمد العروسي المطوي، **الحروب الصليبية بين الشرق والغرب**، ط2، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989).
- محمد فريد بك: **تاريخ الدولة العلية العثمانية** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2018).
- محمد الهادي الشريف، **تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، ترجمة محمد الشاوش ومحمد عجينة، ط3، (تونس: دار سراس للنشر، 1993).
- نللي سلامة العامري، **الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني لإفريقية في العهد الحفصي**، ط2، (لبنان، دار الفارابي، 2006).

ثالثًا– المراجع الأجنبية:

- Berque, Jacques, **Ulémas, fondateurs, insurgés du Maghreb XVIIe siècle,** (Paris, 1967).
- Brunshvig, R., **Les métiers vils en Islam, Etudes d` Islamologie**, 2T, (Paris: 1971).
- De Dalmases, Pablo Ignasio, **Viajeros por El Sahara Español: Antología de relatos viajeros**, (Madrid: Grupo Editorial Sial Pigmalión, Primera Edición, 2016).
- Diego de Haëdo, **La Topographie d'Alger**, (Alger: Grand Alger livres, De A. Berbrugger et Dr. Monneau, in Revue Africaine, T.20, 1876).
- Godbey, Allen, **The lost tribes a myth**, (Duke University press, 1930)**.**
- Hazard, Harry Williams, **The Numismatic History of Late Medieval North Africa**, (New York: American Numismatic Society, 1952).
- Mercier, Ernest, **Histoire de l'Afrique septentrionale**, (Paris: Ernest le Lerroux éditeur, 1891).
- Rousseau, Alphonse, **Annales Tunisiennes ou aperçu sur la Régence de Tunis**, (Tunis: édition Bouslama, 1980).
- Valensi, Lucette, **Fellahs tunisiens. L'économie rurale et la vie des campagnes aux XVIIIe et XIXe siècles**, (Paris: 1977).
- Windsor, Rudolph, **From Babylon to Timbuktu: a history of the ancient black races including the black Hebrews**, (USA: Lushena Books, 19th Printing, 2003).

رابعًا– الدوريات العربية:

- أسماء أبلالي: التحرشات الإسبانية على سواحل الجزائر خلال القرن 10هـ/ 16م "قراءة في الدوافع والنتائج"، **مجلة روافد للبحوث والدراسات**، جامعة غرداية، الجزائر، (2017).
- بلكيف عبد المنعم، القضايا النوازلية في كتاب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" للإمام المغيلي ودورها في كتابة التاريخ الاجتماعي، **مجلة الحكمة للدراسات التاريخية**، المجلد11، العدد4، (2023).
- خالد مكرم فوزي، "الأحوال الاجتماعية لمدينة فاس في الربع الأخير من القرن السادس عشر في ضوء كتاب (أفريقيا) لكربخال"، **مجلة التاريخ والمستقبل**، جامعة المنيا(يناير 2022).
- سالم بوتدارة "الصحراء الجزائرية في كتابات مارمول كاربخال"، **مجلة الحوار المتوسطي**، العدد7، 2014.
- الشافعي درويش، الحملة الإسبانية على تونس في سنة 1535م، **مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية**، (سبتمبر 2017).
- الشافعي درويش، "علاقات تونس مع جمهورية البندقية خلال العصر الحديث من العداء إلى السلمية"، **مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، (يونيو 2021).
- صالح بعيزيق، "الاندماج القبلي في مجتمع المدينة: مثال قبيلة زواوة ومدينة بجاية في العهد الحفصي"، **المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية**، (2004).
- عادل بن محمد جاهل، "أضواء على مجتمع حاحا زمن السعديين من خلال مشاهدات الرحالة الإسباني لويس ديل مارمول كرباخال"، **مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية**، (أكتوبر 2019).
- فاتح بلعمري، المدن الساحلية الجزائرية في القرن 10هـ/16م عند مارمول كربخال وأبي الحسن التمقروتي دراسة مقارنة، **المجلة التاريخية الجزائرية**، (2022).
- محمد البشير رازقي، "الاقتصاد والمجتمع في البلاد التونسية في النصف الثاني من القرن السادس عشر من خلال نوازل قاسم عظوم"، **مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، موريتنيا،(2018).

- محمد بومدين "**دور رحلة الأسر في تأصيل مقاربات الفكر التاريخي وآلياتيهما الفلسفية عند مارمول كاربخال والحسن الوزان نموذجًا، دورية كان التاريخية**"، يونيو 2022.
- ناصر الدين سعيدوني: "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية الجزائر، تونس، طرابلس الغرب: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري، من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادي"، **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية**، الكويت، 2010.

خامسًا- الدوريات الأجنبية:

- Amri, Nelly, Walī et awliyā' dans l'Ifrīqīya "médiévale", **Studia Islamica**, No. 90 (2000).
- Martínez, Laura, Martínez María Lara, Descripción general de Áfricay origen del nombre del continente según León el Africanoy, Luis del Mármol Carvajal", **Clásicos Mínimos Fecha de Publicación** (Marzo 2005).
- Monteil, Charl, Problemes du Soudan Occidental: Juifs et Judaises, **Hesperis**, Tom. XXXVIII, (Année 1951).
- Tarizzae, M.L, "Early Arab coins of Tunisia the Hafsid (627-982AH/1230-1574 AD)", **Oriental Numismatic Society Information**, (January1980).

سادسًا- الرسائل العلمية العربية:

- آسيا غزيل ومنال مسعودة، **الصراع الإسباني العثماني على تونس خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، (ماجستير**: كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة غرداية، الجزائر، 2020).
- جميلة مبطي المسعودي، **المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها سنة 621هـ وحتى سنة 893هـ**، (ماجستير: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 2000).
- وسام صحراوي، لويزة عطاء الله، **العناصر السكانية في إيالتي الجزائر وتونس في العهد العثماني "العنصر الكرغلي أنموذجًا، (ماجستير**: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أكلي ولحاج، الجزائر، 2021).